عبدالحميد ابن باديس رائد الإصلاح والنهضة في تاريخ الجزائر الحديث

(١٣٠٧ - ١٣٥٩هـ / ١٨٨٩ - ١٩٤٠م)

الدكتور : فهمي توفيق محمد مقبل*

* ليسانس آداب في التاريخ من كلية الآداب جامعة بيروت العربية، ١٩٧٤م.
- دبلوم الدراسات العليا في الدراسات العربية والإسلامية - كلية الآداب من الجامعة نفسها ١٩٧٩م.
- دكتوراه في الأدب (تاريخ حديث) قسم الدراسات الشرقية جامعة مانشستر عام، ١٩٨٣م.
- يعمل الآن أستاذاً مشاركاً في قسم الدراسات الاجتماعية - كلية التربية - جامعة الملك فيصل بالأحساء.

المقدمة :

كان من أولويات فرنسا عند استيلاء قواتها على الجزائر سنة (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م) محو عروبة الجزائر وإسلامها، فمنذ أن وطئت أقدام جنودها الغازية بقيادة الجنرال بورمونت *Bourmont* أرض مدينة الجزائر، أعلنت فرنسا امتلاكها ، وأخذت ترسل المزيد من جيوشها إلى الجزائر لإخضاع هذا البلد العربي المسلم لسيطرتها الكاملة [١] وتحقيقاً لهذه الغاية ، تم إزالة كل معالم وآثار الحكم

(١) في (١٣ شعبان ١٢٤٥هـ / ٧ شباط (فبراير ١٨٣٠م) قرر مجلس الوزراء الفرنسي المنعقد برئاسة الملك شارل العاشر *Charles X* الاستيلاء على الجزائر وأرسل لهذا الغرض جيشاً مؤلفاً من نحو ٢٨٠٠٠ ألف مقاتل ، وعمارة بحرية مؤلفة من مئة سفينة و٣ سفن تحمل ٢٧٠٠٠ ألف جندي بحري . وفي (٢٠ ذي الحجة ١٢٤٥هـ / ١٢ حزيران (يونيو) ١٨٣٠م) وصلت الحملة الفرنسية ونزلت بالقرب من الجزائر العاصمة وتصدى لها في التو أبناء المدينة الباسلة وبعد منازلة عنيفة غير متكافئة فاز الفرنسيون بالمعركة، ليدخلوا محتلين قلعتها - المعروفة باسم (سلطانة قلعة سي) والواقعة أمام مدينة الجزائر - يوم (١٤ المحرم ١٢٤٦هـ / ٥ تموز (يوليو) ١٨٣٠م) وكان هذا إيذاناً بدخول الجيوش الغازية إلى المدينة نفسها بعد أن خرج الداي ==

العثماني (التركي)(١). ونفي الداي(٢) وتهجير السكان الأتراك، وإصدار القوانين

== حسين منها . لتعلن فرنسا امتلاكها للمدينة . وعلى الأثر أخذت فرنسا ترسل جيوشها إلى الجزائر تباعاً لاحتلالها بالكامل ، لكنها واجهت على الدوام مقاومة باسلة ، بدأت منذ اليوم الأول للاحتلال ، بقيادة الأمير المجاهد عبدالقادر الجزائري (١٢٢٢ - ١٣٠٠هـ / ١٨٠٧ - ١٨٨٣م) . ومن الجدير بالذكر ، أن الفرنسيين لم يحكموا الجزائر كمستعمرة بل عدوها طوال احتلالهم جزءاً لا يتجزأ من فرنسا !! انظر محمد فريد بك المحامي . **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ؛ تحقيق إحسان حقي -٠ ط٢ -٠ دار النفائس ، ١٩٨٣م ، ص٤٤٧ - ٤٤٨ . انظر أيضاً محمود قاسم ، الإمام عبدالحميد بن باديس - الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية -٠ ط٢٢ -٠ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٩م ، ص٧ . للمزيد من التفاصيل عن شروط استسلام الداي واستيلاء فرنسا على الجزائر ، انظر ، أحمد عزت عبدالكريم . **دراسات في تاريخ العرب الحديث** -٠ بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٠م ، ص٤١٠ وما بعدها . كذلك انظر شارل هنري تشرشل . **حياة الأمير عبدالقادر (الجزائري)** ؛ ترجمة أبو القاسم سعد الله -٠ ط٢ -٠ الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م ، ص٤٩ وما بعدها .

(١) كانت الجزائر جزءاً من الدولة العثمانية منذ عام ٩٢٤هـ / ١٥١٨م) . ونتيجة لضعف الدولة العثمانية عامة ، في مطلع القرن (١٢هـ / ١٧م) وقبضتها في شمال إفريقيا (المغرب العربي) خاصة ، ونظراً لموقع الجزائر في مواجهة أوربا كانت الفرمانات السلطانية للدايات في الجزائر ، والبايات في المغرب ، تسمح بعقد المعاهدات التجارية والمالية مع هذه الدول ، مما منحهم - الاستقلال التدريجي - من الناحية العملية في إدارة شؤونهم وشؤون بلدانهم ، وعند الاجتياح الفرنسي للجزائر سنة (١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م) كانت السيادة للسلطنة العثمانية على الجزائر مجرد سيادة اسمية (شكلية) لا يكاد يدري بها سكان البلاد . انظر رأفت الشيخ . **في تاريخ العرب الحديث** -٠ القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٢٢م ، ص٢٩ ، ٩٠ . انظر كذلك إسماعيل ياغي . **العالم العربي في التاريخ الحديث** -٠ الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٩٩٧م ، ص٢٥٢ . وقارن فريد بك المحامي ، المرجع السابق ، ص٤٤٧ .

(٢) عن اسم الداي الذي واجه الحملة الفرنسية ونفي - بعد استسلامه - إلى مصر فهو الداي حسين - ويرى تشرشل - أن اسمه حسن . للمزيد انظر تشرشل ، المرجع السابق ، ص٤٣ ، هامش رقم ١ ، ص٥٢ . انظر أيضاً عبدالكريم ، المرجع السابق ، ص٤١١ . عن معاني الألقاب وشرحها انظر على سبيل المثال : مصطفى بركات . **الألقاب والوظائف العثمانية** - دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر وحتى إلغاء الخلافة العثمانية - (من خلال الآثار والوثائق والمحفوظات ١٥١٧ - ١٩٢٤م) -٠ القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٠م . ==

والمراسيم باسم ملك فرنسا[1] ثم تلا ذلك توسيع مدينة الجزائر واحتلال كل المدن الساحلية، وامتداد المراقبة العسكرية نحو جبال أطلس (الأعلى والأوسط والداخلية).

هذا في الوقت الذي شنت فيه فرنسا حرباً لا هوادة فيها على الثقافة العربية الإسلامية في طول البلاد وعرضها ، حيث بدأت بالعمل على تهديم صروح الثقافة المزدهرة في الجزائر منذ القرنين (١٠/١١هـ/ ١٤/١٥م) المتمثلة في مدينتي تلمسان وقسنطينة ، وفي الوقت نفسه أغلقت أبواب نحو ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية في وجه أكثر مما يزيد على مئة وخمسين ألف طالب ، وشردوا معظم الأساتذة المتضلعين بمختلف التخصصات العلمية مما حرم الأجيال الطالعة من التعليم ، ولم يبق من المدارس إلاّ ما تسمح به السلطات الفرنسية وإذا سمحت لم تسمح إلا بفتح مدرسة قرآنية بشروط مهينة !![2] ورافق ذلك على امتداد سنوات الاحتلال الفرنسي البغيض للجزائر (١٢٤٦ - ١٣٨٢هـ/ ١٨٣٠ - ١٩٦٢م) كل

== أيضاً موفق بني المرجة . **صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الإسلامية**.- ط٢.- بيروت : دار البيارق ، ١٩٩٦م ، ص٤٤٩ - ٤٦٢ .

(١) كان ملك فرنسا عند احتلال الجزائر ، هو شارل العاشر *Charles X* الذي توج ملكاً وهو في السادسة والستين من العمر ، وهو الشقيق الأصغر للملك لويس السادس عشر *Louis XVI* الذي أطاحت به الثورة الفرنسية . ومن الجدير بالذكر أن شارل العاشر نفسه انتهى عهده بثورة عليه وبتنازله عن العرش لحفيده لويس فيليب *Louis Philippe* في السنة نفسها التي اغتصبت فيها الجزائر (١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م) . وبسقوط حكم شارل العاشر سقط معه قائد حملته إلى الجزائر الجنرال بورمونت *Bourmont* . انظر *The World Book Encyclopedia., vol., 3 World Book International, A. Scott Fetzer Co., London. pp.352. Chicago, 1994.*

أيضاً تشرشل ، المرجع السابق ، ص٤٣ هامش رقم ١ .

(٢) انظر قاسم ، المرجع السابق ، ص٧ - ٨ . وانظر كذلك *A. L. Tibawi, Islamic Eduction - Its Tradition and Modernization into the Arab National Systems - Luzac Company Ltd., London, 1979, p. 165.*

صنوف الإبادة والتشريد والتنكيل الجماعي وإلقاء آلاف الأحرار والمقاومين الجزائريين في السجون . ولم تفت جرائم الاحتلال الفرنسي في عضد الشعب الجزائري ، بل زادته قوة وإصراراً على مواصلة الكفاح المسلح وتطويره ، وتعبئة النفوس بروح الجهاد والمقاومة من أجل تخليص الجزائر من براثن الاحتلال ، وتحقيق الاستقلال وصولاً للحياة الحرة الكريمة .

في هذه الأجواء المظلمة المكفهرة حيث السلطات الفرنسية سادرة في غيها ، تمعن في جرائمها وطغيانها تنكيلاً وأذىً جسدياً وروحياً بالشعب الجزائري الصامد في مواجهة مخططاتها وأساليبها القمعية، ظهر ابن باديس ليبلسم قلوب الجزائريين وجراحاتهم ويعيد الأمل إلى نفوسهم بمستقبلهم ، ويبدد الظلام من حولهم بنور دعوته الإصلاحية النهضوية ، التي يرى فيها أن الجهود الفردية لا تدحر الاحتلال ، لذلك انطلق من فكرة أن الإصلاح ، لا يؤتي أُكُله إلا إذا كان للمسلمين قوة وشوكة ، وهذه القوة لا تكون إلا عن طريق جماعة منظمة تخطط وتفكر وتنفذ، فكان أن ولدت من رحم هذه الفكرة سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣١م) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة ابن باديس نفسه «باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر وواضع أسسها على صخرة الحق»، وكان لسان حالها جريدة الشهاب[1] التي باشرت على الفور،

---

(١) **الشهاب** (مجلة) علمية دينية أدبية ، أصدرها في مدينة قسنطينة (الجزائر) عبدالحميد بن باديس (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م) واستمرت في الصدور حتى عام (١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م) . كانت في بدء ظهورها أسبوعية (من ٤ إلى ٦ صفحات) ثم داومت على الصدور شهرية (من ٤٠ إلى ٦٠ صفحة) وكان شعارها «إن العروبة والإسلام لا ينفصلان» . وقد صدر منها في حياة ابن باديس نحو ١٥ مجلداً . وانظر قاسم ، المرجع السابق ، ص٢١ . كذلك انظر جورج الراسي ، **الإسلام الجزائري** – من الأمير عبدالقادر إلى أمراء الجماعات -٠ بيروت : دار الجديد ، ١٩٩٧م ، ص١٧٨ – ١٧٩ . للمزيد انظر خير الدين الزركلي ، **الأعلام** – قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، م٣ -٠ ط٤ -٠ بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م ، ص٢٨٩ .

افتتاح عدد من المدارس ، وإرسال البعثات العلمية لطلابها وعلمائها إلى عدد من الأقطار العربية متخذة شعاراً لها : «شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب» .

كانت دعوة ابن باديس دعوة دينية سلفية خالصة تتميز بالانفتاح والتجديد وتجافي الجمود والانغلاق تقاوم الاندماج - فرنسة الجزائر أو ضمها إلى فرنسا - وتنادي بالمحافظة على الصبغة العربية الإسلامية للجزائر . لا غرو ، إن كان لهذه الأبيات التي أنشدها ابن باديس فعل البارود وصداه في نفوس الشعب الجزائري على امتداد أرض الوطن وأطيافه السياسية ، حيث بقيت إحدى أهم أسلحته المعنوية في مقاومة العدو حتى تحرير الوطن :

«شعبُ الجزائر مُسلِمٌ وإلى العروبة ينتسبْ
من قالَ حاد عن أصلِهِ أو قالَ ماتَ فقد كذبْ
أوْ رامَ إدماجاً لـهُ رامَ المُحالَ من الطلبْ»

كان الهمُّ الأكبر لابن باديس إحباط المخططات الاستعمارية الفرنسية التي تحاول الانتقاص من الشخصية الجزائرية بإيهام الشعب الجزائري بأنه لا محالة صائر جزءاً من الأمة الفرنسية عضوياً ومصيرياً .. فاستطاع بما حباه الله من حكمة ودراية وبصيرة نافذة من إحياء الروح الإسلامية في الجزائر .. وإيقاظ الروح الوطنية في شعبها التي جاء من رحمها حرب التحرير الجزائرية وهي الحرب التي انتهت بطرد المحتلين وإعلان استقلال الجزائر(١).

(١) على مدى ١٣٢ عاماً هي عمر الاحتلال الفرنسي للجزائر لم يتوقف الشعب الجزائري يوماً عن مقاومة الاحتلال ، لكن تعتبر ثورته الكبرى التي بدأها سنة ١٣٧٤ - ١٣٨٢هـ / ١٩٥٤ - ١٩٦٢م) بقيادة جبهة التحرير الجزائرية ، علامة فارقة في تاريخه السياسي الحديث والمعاصر حيث توجها بالانتصار - بعد تضحيات جسام - على فرنسا ، وإعلان استقلال الجزائر في (٣ صفر ١٣٨٢هـ/ ٥ تموز (يوليو) ١٩٦٢م) . وتسمية مدينة الجزائر عاصمة ==

الشيخ عبدالحميد ابن باديس (الخلفية التاريخية) :

هو عبدالحميد بن محمد بن المصطفى بن مكي بن باديس وينتهي نسبه إلى جده الأكبر المعز بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية[1] الأولى التي خلفت دولة الأغالبة[2] على مملكة القيروان . ولد بمدينة قسنطينة في (١٠ ربيع الآخر ١٣٠٧هـ/ ٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٩م) . متحدراً من عائلة عريقة في الحسب والنسب والجاه ، من أكبر أُسر مدينة قسنطينة ، ومعروف في تاريخ الجزائر ، بعلو كعبها في ميادين العلم وبثرائها المادي . وقد ساعد ثراء أُسرة ابن باديس على تحرره من رق الوظيفة وقيودها ، خاصة في ظل الإدارة الفرنسية المستعمرة . ومكنه هذا أن يوقف حياته كلها لبعث روح النهضة العربية الإسلامية في الجزائر الحديثة . وأن يُعِدَّ شعبه بصدق وإخلاص للكفاح البطولي المجيد الذي انتهى بتحرير الجزائر من نير الاحتلال الفرنسي بعد ١٣٢ سنة من الكفاح البطولي[3] .

== للبلاد .. انظر إسماعيل ياغي ومحمود شاكر . **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، (قارة إفريقيا)** ج٢ ٠- دار المريخ ، ١٩٨٣م ، ص١٣٥ . انظر كذلك المنجد . **في اللغة والأعلام**٠- ط٢٨٠- بيروت : دار المشرق ، ١٩٨٦م ، ص٢٠٢ -٢٠٣ . للمزيد *World Book (The) op.cit., vol.,1, pp.207-292.*

(١) صنهاجة : قبائل من «البربر» في المغرب العربي ، جاء على ذكرهم ابن خلدون ، في كتابه ديوان العبر ، منهم الطوارق وسكان الهقار والملثمون.. أدوا دوراً مهماً في قيام دولة المرابطين (٤٤٨ - ٤٥٣هـ / ١٠٥٦ -١١٤٧م) . انظر المنجد ، المرجع السابق ، ص٤٢٦ . (راجع فيما يلي عن تاريخ البربر وأصولهم العربية الصريحة - هامش رقم ٢ ص) .

(٢) الأغالبة (الأغلب بنو -) سلالة إسلامية ، مؤسسها إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ٢٩٧هـ/ ٨٠٠ - ٩٠٩م) حكمت في بلاد شمال إفريقيا وكانت عاصمتها القيروان، في عهد الخلافة العباسية . انظر المنجد ، المرجع السابق ، ص٥٢.

(٣) انظر قاسم المرجع السابق ، ص١٥ . انظر كذلك مازن مطبقاني . **عبدالحميد بن باديس - العالم الرباني والزعيم السياسي** ٠- دمشق : دار القلم ، ١٩٨٩م ، ص٢٧ وما بعدها .

بدأ ابن باديس دراسته الأولى في مدينة قسنطينة - عاصمة الشرق الجزائري - فلقي - وهو البكر في عائلته - كل ما يمكن أن يحظى به فتى نابغ صاحب شخصية كبيرة مؤثرة واعدة ، وبعد أن أنهى دروسه الأولى من تعلم مبادئ اللغة العربية ومبادئ الإسلام على يد الشيخ حمدان الونيسي (ت ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) وأتم في سن الثالثة عشرة حفظ القرآن الكريم ، وصلى بالناس صلاة التراويح على صغر سنه .. وكانت سنة (١٣٢١هـ / ١٩٠٣م) نقلة جديدة نوعية في حياته بدخوله حلقة الشيخ الونيسي ، لا ليأخذ عنه مبادئ العلم والأدب فحسب ، بل ليرسم له منهجه في الحياة ، حيث أخذ عليه بداية ، عهداً ألاّ يعمل موظفاً في حكومة الإدارة الفرنسية، أو في أية وظيفة !! حتى يتفرغ لخدمة دينه وأمته بعيداً عن أي تأثير خارجي قد يفسد عليه حكمه ، أو يبعده عن غايته ، فيميل به عن جانب الحق[1] .

وأضاف وهو يوصيه - قبل أن يهاجر إلى المدينة المنورة حيث مات ودفن فيها - صاباً من نفسه في نفس تلميذه النقية ، وطابعاً حياته العلمية والعملية بطابع روحي وأخلاقي لم يفارقه طول حياته . أن عليه أن يأخذ بنهج العلماء الصالحين العاملين، فالعلماء هم ورثة الأنبياء في إصلاح الخلق والجهر بالحق ، وأن هذه الأمة نشأت بالدين ، ولا بد أن يقودها العلماء العاملون، الذين يجمعون بين فضيلتي العلم والتقوى وبين الشجاعة والذكاء ، ومن ثمَّ الاستقلال عن أصحاب الجاه والنفوذ . لأن

---

(١) انظر عمار الطالبي. **ابن باديس حياته وآثاره** ، ج١ ·- الجزائر : دار مكتبة الشركة الجزائرية، ١٩٦٨م ، ص٧٤ . انظر أيضاً محمد الميلي ، **ابن باديس وعروبة الجزائر** ·- ط٠٢- الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٠م ، ص١٤ . كذلك انظر قاسم ، المرجع السابق ، ص١٦ ، كذلك مطبقاني ، المرجع السابق ، ص٣٠ -٣١ . انظر أيضاً ، مصطفى حميداتو . **عبدالحميد بن باديس (رحمه الله) وجهوده التربوية** ·- الدوحة ، قطر : سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، إصدارات كتاب الأمة ، ١٩٩٧م ، ص٦٧.

العلماء الصالحين هم الأكثر أهلية لثقة الأمة وقيادتها ، لإخراجها من أزماتها وإيجاد الحلول لمشكلاتها الحقيقية ، ووضعها على طريق المستقبل الذي يعيد لها مكانتها الحضارية بين الأمم وحتى تستعيد زمام المبادرة بوصفها صاحبة رسالة إنسانية عالمية أشمل(١) .

رحلاته الأولى في طلب العلم :

سافر ابن باديس إلى تونس لإتمام دراسته حيث مكث لهذا الغرض أربع سنوات (١٣٢٦ - ١٣٣١هـ / ١٩٠٨ - ١٩١٢م) بهدف التضلع في شتى العلوم الشرعية ، بالتحاقة بجامعها العريق ، جامع الزيتونة حيث درس الأدب على العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (رئيس الجامعة) (ت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) وتفسير القرآن الكريم على العالم الكبير محمد النخلي القيراوني (ت ١٣٤٢هـ/١٩٢٥م) وكان أثر أستاذه النخلي في نفسه عظيماً علمياً وعملياً . وبعد ثلاث سنوات من الدراسة نال ابن باديس شهادة «االتحصيل» كما حصل على شهادة «التطويع العالية» على يد الشيخ النخلي نفسه وهي الأخرى شهادة دينية رفيعة . وبعدها جلس سنة رابعة للتدريس في جامع الزيتونة(٢).

بيد أنه لم ترق له أجواء الدراسة في الزيتونة ، فقد اتصل ابن باديس خلال دراسته في تونس ببعض رواد الفكر العربي والإسلامي الإصلاحي . ولا شك أن ذلك الاتصال - غير المباشر - قد أثار عنده علامات استفهام لم يجد لها في نفسه إجابات كافية شافية .. هذا في الوقت الذي فتحت أنظاره على ما كان يجري في

---

(١) انظر محمد العبدة ، «نظرات ... في مسيرة الدعوة والإصلاح» ، في **المنارة الجديد** (مجلة فصلية) العدد الأول ، ١٩٩٨م ، ص٥٨ .

(٢) انظر قاسم ، المرجع السابق ، ص١٦ . كذلك انظر مطبقاني ، المرجع السابق ، ص٣١ ، أيضاً الراسي ، المرجع السابق ، ص١٧٥ .

العالم الإسلامي ، الأمر الذي رأى فيه أن دراسته في الزيتونة لم تكن بمستوى الطموحات التي تتطلبها نزعته العلمية والإصلاحية - خاصة تبرمه من المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله .. ونزعته نحو التحرر من قيود التقليد الذي لا فكر فيه ولا نظر - هذا ما عبّر عنه في نقده لمنهج تدريس العلوم الإسلامية ، ناعياً على المفسرين طريقة تدريسهم التي تنصب في معظمها على القشور دون اللب والمظهر دون الجوهر[1] .

عقد ابن باديس النية على التوجه إلى دول المشرق العربي . فقد شعر أنه بحاجة للقيام باتصال مباشر مع مواقع الفكر الإصلاحي في المشرق .. ولكنه قبل بدء هذه الرحلة التاريخية عاد إلى بلاده الجزائر - مدينة قسنطينة - لمدة قصيرة، بذر فيها بذور نواة نهضة علمية جديدة تنبع من أُسس الدين الإسلامي وروحه ، القرآن الكريم والسنة المطهرة ، من وحي هذا التوجه ، أخذ يعطي دروسه الأولى في الجامع الأخضر للكبار كل مساء ، وفي مسجد كمّوش للصغار خلال النهار . وشرع في هذه المدة القصيرة تدريس كتاب الشفا للقاضي عياض[2] . وبعد مضي هذه المدة القصيرة من نشاطه التعليمي في قسنطينة ، ما لبث أن عقد العزم ، وقرر تنفيذ ما نوى عليه ، ميمماً وجهه صوب الشرق ، بادئاً رحلته عام ١٣١٣هـ / ١٩١٣م) إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، حيث التقى من جديد أستاذه الونيسي

(١) انظر الميلي ، المرجع السابق ، ص١٠ ، كذلك انظر قاسم ، المرجع السابق ، ص١٦.

(٢) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي أبو الفضل ، (٤٧٦ - ٥٤٤هـ / ١٠٨٣ - ١١٤٩م) عالم المغرب وإمام أهل الحديث في زمنه . من مواليد مدينة سبتة المغربية ، من تصانيفه المشهور : **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** ، للمزيد انظر الزركلي ، المرجع السابق ، ج٥ ، ص٩٩ .

(حمدان) وتعرّف للمرة الأولى على الشيخ بشير الإبراهيمي[1] الذي أصبح أخاً له لم تلده أمه وتوآم روحه ورفيق دربه الأبدي . كما التقى علماء المدينة المعروفين ومنهم العالم الجليل الشيخ حسين أحمد الهندي (المدني) (ت ١٣ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ / ٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٧م) ، الذي نصحه بعدم الهجرة والعودة إلى بلاده لخدمة دينه ووطنه[2] . ويبدو أن هذا اللقاء ترك أثراً بالغاً في نفس ابن باديس حيث جعله يبوح بقصته بعد حوالي ربع قرن ، ففي الاحتفال الذي أقيم بمناسبة افتتاح «دار الحديث» بمدينة تلمسان خريف سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م) جاء في الكلمة التي ألقاها ابن باديس بالمناسبة : «أذكر أنني زرت المدينة المنورة ، واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان الونيسي ، المهاجر الجزائري ، وشيخي حسين أحمد الهندي

---

(١) هو محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي ، (١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦٥م) مجاهد جزائري من كبار العلماء ، كان نائباً لرئيس جمعية علماء المسلمين الجزائريين . التي - تأسست في مدينة قسنطينة - سنة (١٣٤٩هـ / ١٩٣١م) خلف ابن باديس في رئاسة الجمعية بعد وفاته عام (١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م) اعتقل وعذب مراراً من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي . نشط وهو طليقاً من قبضة الاحتلال في إنشاء المدارس والأندية العالمية . كان من أعضاء المجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد ، وعند اندلاع الثورة الجزائرية سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م) . كان الإبراهيم ، مقيماً في القاهرة ، لكنه كان أول من وقف إلى جانب الثورة والثوار وطفق يجوب العالم لإمدادها بالمال وبكل أسباب الثبات والاستمرار ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .. من الجدير بالذكر أن الإبراهيمي استقر مدة في سوريا في أواخر الحرب العالمية الأولى ، تأثر بحركة الإصلاح السلفية الداعية إلى استلهام منابع الإسلام الأصلية .. بالتنسيق مع ابن باديس عاد إلى الجزائر سنة (١٣٤١هـ / ١٩٢٢م) . للمزيد عن سيرته وآثاره العلمية ، انظر الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ٥٤ ، أيضاً الراسي ، المرجع السابق ، ص١٨٦ .

(٢) انظر مطبقاني ، المرجع السابق ، ص٣٤ - ٣٦ ، وص٥١ وما بعدها . أيضاً الراسي ، المرجع السابق ، ص١٧٥ . كذلك حميداتو ، المرجع السابق ، ص٧٢ -٧٣ .

أشار علي الأول بالهجرة إلى المدينة .. وأشار عليَّ الثاني بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد ، ورجعنا إلى الوطن ، بقصد خدمته ، فنحن لا نهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية .. في هذا الوطن «وفي طريق عودة ابن باديس إلى الجزائر سنة (١٣١٤هـ / ١٩١٤م) زار بلاد الشام واجتمع بعلمائها وأدبائها . كذلك زار القاهرة وجامعها الأزهر الشريف ، والتقى بنخبة من العلماء فيها من أمثال الشيخ بخيت المطيعي[١] وقد منحه الشيخ بخيت في هذه المناسبة ، الإجازة في العلوم الدينية[٢] .

ابن باديس (منهجه للإصلاح) :

عاد ابن باديس إلى الجزائر عشية الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣هـ / ١٩١٤م). وهو على قناعة تامة ، أن الحل للخروج من هذا النفق المظلم الذي تعيش فيه بلاده خاصة ، وعالمه العربي والإسلامي عامة يكمن في التعليم ويرى أن للعلماء كلمتهم في هذا الحقل ، ودورهم أساس في هذا المضمار ، مضمار التربية والتعليم حسب ما ورد في الأثر : صنفان إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء ، إلى جانب إيمانه أن يكون علماء الدين مستقلين تمام الاستقلال .. لا شك ، أن ابن باديس ظهر في وقت كان شعب الجزائر في أمس الحاجة إلى أمثاله . فمع ظهوره كان الشعب الجزائري يعاني أشد أنواع القهر وصنوف العذاب

(١) هو محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي (١٢٧١ - ١٣٥٤هـ / ١٨٥٤ - ١٩٣٥م) ، مفتي الديار المصرية (١٣٣٣ - ١٣٣٩هـ / ١٩١٤ - ١٩٢١م) ومن كبار فقهائها . تعلم بالأزهر ، واشتغل بالتدريس فيه . وانتقل إلى القضاء الشرعي سنة (١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م) ، له مؤلفات علمية عديدة منها : القول المفيد في علم التوحيد ، والكلمات الحسان في الأحرف السبعة وجمع القرآن .. للمزيد انظر الزركلي ، المرجع السابق ، م٦ ، ص٥٠ .

(٢) انظر محمود قاسم ، المرجع السابق ، ص١٦ - ١٧ . وقارن الشهاب (مجلة) ج٨ ، م١٣ ، تشرين الثاني (أكتوبر) ١٩٣٧م ، ص٣٥٤ .

من المحتل الفرنسي والعزلة عن عالمه العربي والإسلامي . فكان على ابن باديس ومعه جمعية العلماء المسلمين أن يفتحوا قنوات الاتصال مع العالم العربي والإسلامي على الرغم من جدار العزلة السميك الذي أقامه المحتل الفرنسي حول الجزائر لعزلها عن عالمها العربي الإسلامي !

من هنا كان على ابن باديس أن يبدأ بنشر دعوته في الإصلاح والتغيير عن طريق المدارس والنوادي ودروس الحضارة الإسلامية وتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف التي أخذ يلقيها على طلابه ومريديه في الجامع الكبير وفي الجامع الأخضر في مدينته الأثيرة قسنطينة مسقط رأسه . مواصلاً ليله بنهاره يبث روح النهضة العربية الإسلامية في الجزائر داعياً قومه في الوقت نفسه ، إلى الله وإلى تغيير نفوسهم حتى يغير الله ما بهم ، واسنجاماً مع هذا المبدأ اتخذت الثورة الجزائرية من قوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ (١) ، شعاراً لها «لأن ابن باديس ربط فكرة القضاء والقدر بفكرة الأسباب والقوانين الطبيعية وحرية الإنسان وقدرته على تغيير واقعه»(٢) .

يعلل الراسي توجه ابن باديس إلى طريق التربية والتعليم للإصلاح في الجزائر إلى حالة الطريق المسدود التي وصل إليها الإسلام الجهادي والإسلام السياسي في الجزائر ، ومن ثم تأثر ابن باديس وتوأمه الروحي الإبراهيم برواد النهضة في الشرق الإسلامي الذين ركز معظمهم على هذا الجانب وإن شذّ ابن

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١١.

(٢) انظر قاسم ، المرجع السابق ، ص١٧ - ١٨ . كذلك انظر تركي رابح «عبدالحميد بن باديس - باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة» في **العربي** (مجلة) العدد ١٣٧، نيسان (أبريل) ١٩٧٠م ، ص١٠٤ ، كذلك انظر بسام العسلي ، **المجاهدون الجزائريون** -٠ ط٢ -٠ بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٦م ، ص١٣ . أيضاً **العبدة** ، المرجع السابق ، ص٥٨ .

باديس أحياناً عن كونه مربياً فقط ، فقد برز في كثير من المواقف قائداً سياسياً ملهماً للمواطنين الأحرار في الجزائر .. يقول الراسي في هذا السياق : «الإسلام الجهادي كان الرد الفوري من قبل الأمير عبدالقادر (الجزائري)[1] واستمر الجهاد الإسلامي رافعاً رايته أكثر من نصف قرن .. حتى أوائل القرن (١٤هـ / ٢٠م) ومن الأجداد إلى الأحفاد من عبدالقادر إلى حفيده الأمير خالد ، تحولت الراية إلى الإسلام السياسي ، الذي حاول عن طريق السياسة ما لم تستطع تحقيقه البندقية . وعندما وصل الإسلام السياسي بدوره إلى طريق مسدود ، أمام تعنت وعنصرية الغزاة ، ظهر الإسلام الإصلاحي مع جمعية العلماء المسلمين (بزعامة ابن باديس) التي حاولت عن طريق التربية والتعليم والصحافة أن تستعيد بعضاً من المساحة الحضارية ، وبعضاً من الشخصية الوطنية بأبعادها العربية والإسلامية»[2] .

لا ريب أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة ابن باديس عند تأسيسها سنة (١٣٤٩هـ / ١٩٣١م) كانت جمعية دينية في الظاهر تسعى إلى العمل

---

(١) الأمير عبدالقادر بن محيى الدين بن مصطفى الحسني (١٢٢٢ - ١٣٠٠هـ / ١٨٠٧- ١٨٨٣م) من المجاهدين البواسل ومن العلماء الشعراء أول من تصدى للغزو الفرنسي للجزائر (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م) قاتل الفرنسيين بضراوة ١٥ عاماً . لكن أمام حرب الإبادة وطغيان فرنسا وجبروتها خارت قوى الأمير ، واستسلم في (١٦ المحرم ١٢٦٤هـ / ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٧م) ونفي إلى مدينة طولون *Toulon* في فرنسا ، وبعد حوالي ٤ سنوات في المنفى استقر في دمشق (١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م) وتوفي فيها .للأمير عبدالقادر آثار علمية وديوان شعر . عن حياة الأمير عبدالقادر راجع الكتاب الدراسة الشاملة ، شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبدالقادر (الجزائري) ؛ ترجمة أبو القاسم سعد الله -٠ ط٢ -٠ الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،١٩٨٢م . وانظر موجز عن سيرته في الزركلي ، المرجع السابق ، ج٤ ، ص٤٥-٤٦ . أيضاً في الموسوعة العربية العالمية ، م٨ -٠ ط٢ -٠ الرياض : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩م ، ص٣٢٥.

(٢) انظر الراسي ، المرجع السابق ، ص١٧١ .

من أجل تنقية الدين من الشوائب التي علقت به والبدع التي التصقت به ، فضلاً عن دورها في نشر اللغة العربية وإنشاء مدارس في مختلف أنحاء الجزائر . وبالرغم من أن القانون السياسي للجمعية ينص - حسب الشروط التي وضعتها سلطات الاحتلال الفرنسي لمثل هذه الجمعيات - على استبعاد النشاط السياسي من بين اهتماماتها ، لكنها تركت المجال مفتوحاً للمنضوين تحت لوائها للخوض في هذا الميدان بصفتهم الشخصية ، مما جعلهاتشارك في الواقع في الحياة السياسية الوطنية مشاركة مباشرة منذ تأسيسها بزعامة ابن باديس الذي كانت له مواقف شجاعة ثابتة تجاه ما يجري في الجزائر وفي العالم الإسلامي من أحداث وتطورات وحتى عام (١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م) وهي من هذه الزاوية يمكن اعتبارها بمثابة الأرضية الأيديولوجية الصلبة التي تقف عليها الحركة الوطنية ، الاتجاه الثوري منها خاصة[١] . واستبعاد السياسة في الظاهر نجده في المقال الافتتاحي الذي كتبه عبدالحميد ابن باديس في العدد الأول من جريدة البصائر حيث يقول: وإني لأفهم - يوجه كلامه إلى الناقمين على تأسيس جمعية علماء المسلمين الجزائريين - من مناهضتهم العجيبة للجمعية وهي جمعية دينية تهذيبيه بعيدة عن كل سياسة - أنكم لا تريدون من الجزائر إلاّ أن تبقى جامدة وأن لا تتمتع بشيء من الحق إلاّ ما غناء فيه ولا بقي معه ولعمر الحق أن من يريد هذا بالجزائر اليوم لمخالف للشريعة والطبيعة ..[٢] .

(١) انظر جمال قنان . **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر** ·- الجزائر : منشورات المتحف الوطني للمجاهدين ، ١٩٩٤م ، ص١٨٦. وانظر كذلك حميداتو ، المرجع السابق ، ص٧٧ .

(٢) عبدالحميد بن باديس «المقال الافتتاحي» **في البصائر** (جريدة) لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، العدد الأول ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٥م ، ص١ . أعادت طبعها دار البعث بمدينة قسنطينة (الجزائر) ، ١٩٤٨م .

في الحقيقة أن ابن باديس كان يرى في المرحلة الأولى من نشاطه الإصلاحي أن يركز على النواحي الدينية والثقافية ، وأن يخفي أهدافه السياسية لتحرير الجزائر تحت ستار الحركة الدينية كي يتهرب من غدر الاحتلال الفرنسي الغاشم وبطشه الشديد . لذلك نراه - في ظل هذا المناخ المضطرب - يشجع لقاءات المثقفين في نادي الترقي الذي تأسس في مدينة الجزائر عام (١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م) فكان بمثابة واحد من أهم مشاعل النور الذي أضاء الطريق أمام شعب الجزائر العربي للتحرر من نير الاحتلال الفرنسي واسترداد عروبة الجزائر وإسلامها، هذا في الوقت الذي كان فيه ابن باديس يعدُّ العدة لتأسيس جمعية تضم العلماء وترعى النهضة الثقافية والدينية منذ عام (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م) وهي الجمعية التي رأت النور سنة (١٣٤٩هـ / ١٩٣١م) . ويبدو أن الحركة الإصلاحية في الجزائر التي قادها ابن باديس نفسه ، ورفيق دربه البشير الإبراهيمي ، كانت وثيقة الصلة بمؤثرات حركة التجديد الإسلامي التي بدأها في الشرق الإسلامي ، محمد بن عبدالوهاب[1] ،

(١) محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي (١١١٥ - ١٢٠٦هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢م) رائد من رواد النهضة الإصلاحية الدينية الحديثة في جزيرة العرب . ولد وترعرع في قرية العُيَيْنَة (بنجد) . تلقى علومه الأولى على يد والده ، الذي كان يعمل قاضياً للعُيَيْنَة وقتذاك ، رحل في طلب العلم إلى الحجاز ، حيث المدينة ومكة ، وطيف نحو العراق والشام ، وعاد واستقر في نجد حيث جهر بدعوته عام (١١٤٣هـ / ١٧٣٠م) داعياً إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتنقية ما علق بالإسلام من شوائب ، بإنكار الشرك والبدع والخرافات وبالتوسل إلى الله بغير الله .. وجدت دعوته عند أمير الدرعية محمد بن سعود ، كل القبول والارتياح ، فآزره ، وتحالف معه منذ عام (١١٥٧هـ / ١٧٤٤م) . كانت دعوة ابن عبدالوهاب أولى حركات الإصلاح الحديثة ، التي أيقظت العالم الإسلامي من سباته، من هنا كان تأثُر زعماء الإصلاح والتجديد في العالمين العربي والإسلامي بدعوته .. ومنهم بالطبع عبدالحميد ابن باديس (موضع بحثنا) . كانت وفاته في «الدرعية» ، وحفدته اليوم يعرفون ببيت (آل) الشيخ ، ولهم مكانة رفيعة معتبرة عند آل سعود . للشيخ ابن عبدالوهاب مؤلفات كثيرة ، منها كتاب ==

وجمال الدين الأفغاني(١) ومحمد عبده(٢) ومحمد رشيد رضا(٣) وعبدالرحمن

== التوحيد . وتفسير الفاتحة . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومفيد المستفيد .. للمزيد من التفاصيل انظر عبدالعزيز سيد الأهل ، داعية التوحيد محمد بن عبدالوهاب ٠- ط٢ ٠- بيروت : دار العلم للملايين . ١٩٧٨م . أيضاً عبدالحليم الجندي ، الإمام محمد بن عبدالوهاب أو انتصار المذهب السلفي ٠- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٨م . كذلك انظر جماعة من العلماء ، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ٠- ط٢ ٠- الرياض : من إصدارات الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ١٩٨٩م . وعن سيرته بإيجاز انظر الزركلي ، المرجع السابق ، م٦، ص٢٥٧. أيضاً الموسوعة العربية العالمية ، المرجع السابق ، م٢٢، ص٣٦٦. انظر أيضاً عبدالكريم عثمان . معالم الثقافة الإسلامية ٠- ط١١ ٠- بيروت ، ١٩٨٤م ، ص٤٣٨ - ٤٤١ . عن تأثر ابن باديس بالشيخ ابن عبدالوهاب انظر رابح ، المرجع السابق ، ص١٠٤ . وقارن *CF. Bassam Tibi, Arab Nationalism - A Critical Enquiry - Ed. And Trans. by Marion Farouk - Sluglett and Peter Sluglett, The Macmillan Press, London,1981, pp. 62ff.*

(١) جمال الدين الأفغاني الحسيني (١٢٥٤ - ١٣١٥هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) ، فيلسوف الإسلام في زمنه . ولد في أسعدأباد ، في (أفغانستان) عرفه الشرق والغرب جوالاً ثائراً مصلحاً ، واسع الثقافة غزير العلم ، خطيباً مفوهاً داعياً إلى الوحدة الإسلامية . أقام في باريس وأنشأ فيها مع تلميذه الشيخ محمد عبده جريدة «العروة الوثقى» . لا يُعرف للأفغاني مؤلفات مكتوبة ، على سعة اطلاعه وغزير علمه ، لكن من المعروف أن من تصانيفه ، «إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم» . للمزيد عن سيرة الأفغاني وترجمته على نحو موسع ومفصل، انظر محمد عمارة ، جمال الدين الأفغاني - الأعمال الكاملة ٠- بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩م . كذلك انظر قدري قلعجي ، ثلاثة من أعلام الحرية - جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، سعد زغلول ٠- بيروت : دار الكاتب العربي ، د . ت. ص٩ وما بعدها. كذلك انظر البرت حوراني . الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨ - ١٩٣٩م)؛ ترجمه إلى العربية كريم عزقول ٠- ط٣ ٠- بيروت : دار النهار، ١٩٧٧م ، ص١٣١ وما بعدها، فهمي توفيق مقبل . رواد الإصلاح في العصر الحديث - الأفغاني، عبده ، الكواكبي، رضا٠- بيروت: الدار الأكاديمية، ١٩٩٥م، ص١٥ وما بعدها . أيضاً راجع *Also see Tibi op.cit., pp.138ff.* . وعن سيرته بإيجاز انظر الموسوعة العربية العالمية ، المرجع السابق ، م٨ ، ص٤٤٤ .

(٢) محمد عبده بن حسن خير الله (الشيخ) (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٢٥م)، أحد أبرز رواد الإصلاح والتجديد في الإسلام . ولد في قرية (محلة نصر) بمركز (شبراخيت) من أعمال==

....

== مديرية البحيرة . تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر . اشتغل بالتعليم ، ثم انتقل إلى عالم الصحافة ، حرر جريدة ، «الوقائع المصرية» جاهر بعدائه للإنجليز ، فنفي - لوقوفه إلى جانب الثورة العرابية (أحمد عرابي) - إلى بيروت ثم ما لبث أن التحق بأستاذه الأفغاني في باريس ليؤسسا معاً جريدة «العروة الوثقى» عام (١٣٠١هـ / ١٨٨٣م) التي توقفت عن الصدور في السنة نفسها . ثم عاد أدراجه إلى بيروت ليشتغل بالتدريس والتأليف . ثم سُمح له بدخول مصر ، فعاد عام (١٣٠٦هـ /١٨٨٨م) وتقلد مناصب عدة ، أهمها مفتى الديار المصرية عام (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م) وهجر السياسة ، وعاد إلى مواصلة حركته في الإصلاح والتجديد من طريق التربية والتعليم ، حتى وفاته . من أهم مؤلفات الشيخ عبده ، رسالة التوحيد ، وشرح نهج البلاغة ، والإسلام والرد على منتقديه . عن سيرة الشيخ عبده وترجمته على نحو موسع مفصل ، انظر محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لمحمد عبده ، في ستة أجزاء٠- بيروت : الموسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٤م. انظر كذلك قلعجي ، المرجع السابق ، ص١٥١ ، وما بعدها . وانظر أيضاً حوراني ، المرجع السابق ، م٦ ، ص٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٣) رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥- ١٩٣٥م) ، محمد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين ، القلموني ، البغدادي الأصل ، الحسيني الأصل : صاحب مجلة «المنار» ذائعة الصيت والسمعة ، أحد أبرز علماء الدين الإسلامي المرموقين ، الذين اشتهروا بعلم الحديث والأدب والتاريخ والتفسير ، وأحد أهم رجال الإصلاح والفكر الإسلامي في مصر والعالم العربي . ولد في قرية صغيرة من قرى طرابلس الشام تعرف بالقلمون، رحل إلى مصر عام (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) . فوجد في أستاذه الشيخ محمد عبده خير عزاء ، فلازمه وتتلمذ له ، وقد أتاح له هذا الاهتمام بالشيخ عبده (وريث الأفغاني) القيام بدور محمود في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي .. ليتفوق أحياناً على أستاذيه عبده والأفغاني، في علم الحديث ، والاجتماعي والسياسي خاصة .. من آثاره الأهم مجلة «المنار» أصدر منها ٣٤ مجلداً ، وتفسير القرآن الكريم في اثني عشر مجلداً منه ، ولم يتمه . وتاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في ثلاث مجلدات ، ومؤلفات أخرى عديدة ، للمزيد عن سيرة رضا وترجمته ، انظر حوراني المرجع السابق ، ص٢٦٠ وما بعدها ، وعلى نحو مفصل انظر مقبل ، المرجع السابق ، ص١٠١ وما بعدها ، وعن سيرته بإيجاز ، انظر الزركلي ، المرجع السابق ، م٢، ص١٢٦ . كذلك ، الموسوعة العربية العالمية ، المرجع السابق ، م٢٢ ، ص٣٦٨ - ٩٦٩ .

الكواكبي[1] وغيرهم من رواد هذه الحركة الإصلاحية النهضوية في العالمين العربي والإسلامي ، بيد أن جامع الزيتونة في تونس ، كان معبراً لهذه التيارات والمؤثرات الإصلاحية المشرقية - بما فيها المؤتمرات السياسية والثقافية - التي قامت منذ أواخر القرن (١٣هـ / ١٩م) بدور رائد شهد مرور ابن باديس وغيره من المصلحين في بلاد المغرب العربي[2] .

يتفق كثير من الباحثين والمؤرخين أن منهج ابن باديس في الإصلاح ما هو إلا امتداد لحركة الشيخ محمد عبده ، إذ يرون أنه تأثر في شبابه بالحركة السلفية ومدرسة محمد عبده خاصة ، عن طريق أساتذته بجامع الزيتونة ، خاصة محمد بن عاشور ومحمد النخلي ما بين (١٣٢٦هـ - ١٣٣١هـ / ١٩٠٨ - ١٩١٢م) وتأصيل هذا التأثير في أعماقه خلال زيارته للمشرق العربي عام (١٣٢٧هـ / ١٩١٣م) وعن طريق

---

(١) عبدالرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي (١٢٧١ - ١٣٢٠هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢م) . رائد من رواد الإصلاح العرب المسلمين ورموز نهضتها الحديثة . من الكتاب والأدباء المرموقين . ولد وتعلم في حلب . أسس فيها صحافته الخاصة ، منها جريدته الأولى «الشهباء» التي ما أن رأت النور حتى أجهضتها السلطات ؟! تكالب عليه أعداء الإصلاح والتغيير ، فهاجر إلى مصر مشاركاً بحضور مميز في الحركة الفكرية العربية الإسلامية هناك . استقر الكواكبي في مصر إلى أن توفي (يرحمه الله) . للكواكبي من الأعمال ، أم القرى ، وطبائع الاستبداد . للمزيد عن سيرة الكواكبي وترجمته على نحو موسع مفصل انظر مقبل ، المرجع السابق ، ص٨٣ وما بعدها . أيضاً انظر نوربير تابييرو (المستشرق الفرنسي) ، الكواكبي المفكر الثائر - إسهام في دراسة الإسلام الحديث ؛ ترجمة علي سلامة ٠- ط٢ ٠- بيروت : دار الآداب ، ١٩٨١م ، ص٧ وما بعدها ؛ موسوعة المعرفة العالمية ، م٣ ، «عبدالرحمن الكواكبي وفكرة التنظيم الدولي» ، شركة ترادسكيم ، جنيف (سويسرا) ترجمة الأهرام، القاهرة ، د . ت . ص٤١٦ . ولسيرة موجزة انظر الزركلي ، المرجع السابق ، م٣ ، ص٢٩٨ .

(٢) انظر الراسي ، المرجع السابق ، ص١٧٢ - ١٧٦ . أيضاً ، المرجع السابق ، ص١٠٢ ، ١٠٤ . وقارن *And cf. Tibi, op.cit., p67.*

الصحف والمجلات الإصلاحية التي كانت تصل إلى الجزائر رغم الرقابة الشديدة التي كانت تمارسها السلطات . وكان لتلميذ محمد عبده ، المخلص محمد رشيد رضا ، تأثيره الواضح في منهج ابن باديس الإصلاحي ، هذا التأثير بدأ واضحاً في ثنايا الترجمة الشاملة التي خصه فيها ، مستعرضاً فيها جوانب مضيئة من حياته شارحاً الأسباب التي هيأت له ليكون نسيج وحده في هذا العصر ، فقهاً في الدين ، وعلماً بأسرار التشريع ، وإحاطة بعلوم الكتاب والسُّنة .. ثم يوضح ابن باديس ما للسيد رضا من آثار على الحركة الإصلاحية الحديثة فيقول : «فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى في العالم إصلاحاً وهداية ، بياناً ودفاعاً - كلها من آثاره»[(١)] .

في الحقيقة ، كانت تونس في مطلع القرن (١٤هـ / ٢٠م) تشكل قاعدة أساسية للدعاية المعادية لفرنسا ، وقد جاءت زيارة محمد عبده للجزائر سنة (١٣٢١هـ / ١٩٠٣م) وإظهار عدم رضاه عن وضع الإسلام والمسلمين فيها، ليؤجج من حماس الصحف المحلية لدعوته إلى الإصلاح والتجديد والنهوض ، وظهرت صدى هذه الدعوة في صحف معروفة في وقتها مثل : جريدة (المغرب) سنة (١٣٢١هـ / ١٩٠٣م) والإحياء (١٣٢٤ - ١٣٢٥هـ / ١٩٠٦ - ١٩٠٧م) وذو الفقار (١٣٣٢ - ١٣٣٣هـ / ١٩١٣ - ١٩١٤م)[(٢)] .

لكن في الوقت نفسه ، لا يمكن تجاهل ما كان للجزائر من وضع خاص ، أفرزه الواقع الاستعماري ، وأن أحداً لا ينكر ، أن ابن باديس قدم إضافات مهمة إلى الفكر الإصلاحي أثرت في محيطه وتجاوزته إلى أقطار المغرب العربي الأخرى -

(١) انظر مولود عويمر ، «المصلح الثائر الإمام عبدالحميد ابن باديس ١٨٨٩ - ١٩٤٠م» في المجتمع (مجلة) العدد ١٤٥٣، ٢-٨ حزيران (يونيو) ٢٠٠١م، ص٤٣ . كذلك انظر حميداتو ، المرجع السابق ، ص٧٠ - ٧١ .

(٢) انظر الراسي ، المرجع السابق ، ص١٧٣ .

دون إجحاف لدور محمد عبده وشيوخ الإصلاح في المشرق - من هنا يرى باحث إسلامي إن مشروع ابن باديس الإصلاحي جاء نتيجة للظروف التاريخية التي مرت بها الجزائر المستعمرة . ولم يجئ نتيجة تأثر مباشر بأفكار محمد عبده . المشروع الإصلاحي عند ابن باديس يتمثل في المقام الأول في التركيز على تربية النشء كوسيلة لتحضير مستقبل الجزائر وتوعية الشعب الجزائري حتى يقف سداً منيعاً لسياسة الاندماج والاستيطان التي تنتهجها فرنسا في الجزائر . من هنا عمل ابن باديس على تلافي الأخطاء المنهجية التي سار على خطاها رواد المشروع التحرري ، حيث ركز كل من الأفغاني وعبدالرحمن الكواكبي على التغيير السياسي في الوقت الذي اهتم فيه محمد عبده بالتغيير من طريق التربية والتعليم[١].

ومن مواقف ابن باديس التاريخية في هذا الميدان ، دعوته إلى عقد مؤتمر إسلامي في الجزائر لحشد الطاقات في مواجهة مؤامرة إدماج الشعب الجزائري العربي المسلم ، في الأمة الفرنسية ، وعلى الرغم من أن السلطات الفرنسية جلبت بعض المغرر بهم من رجال السياسة الموالين لها ومن أنصار سياسة (الاندماج) .. إلاّ أن ابن باديس وجماعته استطاعوا توجيه قرارات المؤتمر للاعتراف بالشخصية العربية الإسلامية للجزائر[٢] .

يقول الميلي في هذا السياق : «إن الجزائر كانت ، عشية الحرب العالمية الأولى ، تواجه وضعاً خاصاً بفعل التمييز العنصري الذي مارسه الاستعمار والذي

---

(١) عويمر ، **المجتمع** (مجلة) ، المرجع السابق ، ص٤٣ . انظر وقارن رأي شكيب أرسلان من سياسة الاندماج التي تنتهجها فرنسا في الجزائر في كتابه ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم -٠ ط٢ ٠- بيروت : دار مكتبة الحياة ، د . ت. ص٨٨ وما بعدها .

(٢) انظر حميداتو ، المرجع السابق ، ص٧٨ . أيضاً انظر وقارن ، قاسم ، المرجع السابق ، ص٢٩ وما بعدها .

عرف بـ «قانون الأنديجينا» (الاندماج) ، وبفعل فرض الخدمة العسكرية على الجزائريين ، بعد أن كانت قاصرة على الفرنسيين . ولا شك أن رهافة حس ابن باديس التي ضاعفت منها الوضعية الخاصة لجزائر ذلك العهد ، قد جعلته مهيأً أكثر من أي وقت مضى لتلقي التيارات الفكرية التي كانت تسيطر على المشرق ، والتأثر بها . لكن ابن باديس على الرغم من تأثره المؤكد بمدارس الإصلاح الديني في المشرق ، استطاع أن يقدم إضافات مهمة إلى الفكر الإصلاحي وكانت إضافة عملية أكثر منها نظرية ، لأن الإسهام الذي قدمه ابن باديس لحركة الإصلاح الديني ، كان نتيجة تحليله للظرف الخاص الذي كانت تمر به الجزائر فيما بين الحربين ، أكثر مما كان تفلسفاً نظرياً وبحثاً في التجديد[1] .

ويضيف الميلي : «إن استقراء كتابات ابن باديس ، إذا كان يجعلنا نعثر على مواطن الشبه والتأثر بالمدارس الإصلاحية - المشرقية - فإنه يؤكد لنا في الوقت نفسه النهج الخاص الذي انتهجه ابن باديس في دعوته الإصلاحية والبُعد السياسي الواضح الذي أعطاه لحركته .. وهذا ما دفع المستشرق الإنجليزي جب (هاملتون) *H. Gibb* (ت ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) إلى تسجيل هذه الحقيقة عندما كتب يقول : «نظمت في الجزائر جمعية علماء جزائريين لنشر مذهب المنار[2] . كانت الجمعية

(١) الميلي ، المرجع السابق ، ص١٠ - ١١ . وقارن قلعجي ، المرجع السابق ، ص٢٥١.

(٢) يعني مجلة المنار التي أنشأها الشيخ رشيد رضا في القاهرة عام (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) بتوجيه من أستاذه الشيخ محمد عبده ، صاحب التجربة الصحفية العريقة نفسه ، وقد حدد رضا أهداف مجلته بالشعار الذي صدَّر به الصفحة الأولى ووضعه تحت اسم المجلة مباشرة ، حيث يقول إن «المنار» : «مجلة إسلامية تبحث في جميع شؤون الإصلاح الديني والمدني والسياسي ، وتقوم بفريضتي الدعوة إلى الإسلام ، والدفاع عنه ، وجمع كلمة المسلمين» للمزيد انظر مقبل ، المرجع السابق ، ص١٠٢ .

تعارض بصفة خاصة «المرابطين»[1] والطرق الصوفية . وذهب الجزائريون إلى أبعد مما ذهب إليه حزب المنار . فزيادة على دعايتهم المطبوعة والشفوية ، شرعوا في إحياء المدارس القرآنية الابتدائية وإنشائها في جميع أنحاء البلاد للتأثير على الجيل الصاعد . وقد تكللت جهودهم بالنجاح ، رغم العراقيل والأشواك التي وضعت على درب مسيرتهم دون أن تثنيهم عن عزمهم وإصرارهم على مواصلتهم المسيرة قدماً إلى الأمام نحو الأهداف المنشودة[2] .

لكن هذا لا يحجب حقيقة إعجاب الإبراهيمي - شريك ابن باديس في وضع أُسس مشروع حركة الإصلاح والنهضة في الجزائر - بالشيخ محمد عبده الذي يدعو إلى إصلاح عقلاني ومحاولة التوفيق بين الإسلام والعالم الحديث ، وبالشيخ محمد رشيد رضا الداعي إلى الجمع بين السلف الصالح ومعطيات العلم الحديث . كان الإبراهيمي قبل عودته إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى ، التقى بالشيخ رشيد رضا . ويتحدث الإبراهيمي نفسه عشية عودته إلى الجزائر عن حركة ابن باديس الذي رأى فيها اتفاقاً مع مذهبه في الإصلاح .. قائلاً : «إنه لما عاد إلى الجزائر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لقي ابن باديس بتونس ، ثم زاره بقسنطينة، ورأى بعينيه النتائج التي حصل عليها أبناء الشعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم ابن باديس ، واعتقد من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها ، وأن هذه الخطوة المسددة التي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس

(١) للتعرف عن موقف جمعية العلماء من المرابطين والطرق الصوفية عامة والحملة الشعواء التي شنتها الجمعية عليها على اعتبار أنها تتعارض مع تعاليم الدين وتناهض التقدم على حد السواء . انظر الراسي ، المرجع السابق ، ص٢١٥ . أيضاً حميداتو ، المرجع السابق ، ص٩٩ -١٠٠.

(٢) الميلي ، المرجع السابق ، ص١١ .

في نهضة عربية في الجزائر ، وإن هذه المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر[1] .

من هنا كان اتفاق الرجلين - ابن باديس والإبراهيمي - المصيري ، وقد تأثر كل منهما بالآخر تأثيراً كبيراً - أن يضعا معاً أُسس مشروع الإصلاح والنهضة في الجزائر ، وفي الاجتماع التاريخي الذي جمع بينهما في مدينة سطيف سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) وضعت الخطوط الأولى لانطلاقة حركة الإصلاح في الجزائر ، من طريق التعليم والتربية أولاً ! وهي الحركة التي استقطبت عند تأسيسها عام (١٣٤٩هـ / ١٩٣١م) تحت اسم «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» غالبية علماء الجزائر ، ولعل هذا الأمر الذي جعلها الحركة الإسلامية - بين الحركات الإسلامية الأخرى - الوحيدة التي نجحت في استقطاب علماء الجزائر وجعلهم مرجعية للناس، باذلين أقصى ما في وسعهم لإنقاذ الهوية العربية الإسلامية للجزائر بعد أن أشرفت فرنسا على طمس كل ما يمت لهذه الهوية بصلة أو كادت[2] .

- أحوال الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي عشية ظهور ابن باديس:

لعل من المفيد ، حتى ندرك أبعاد الجهود التي بذلها ابن باديس من أجل تحرير وطنه وشعبه من نير الاستعمار الفرنسي ، والتي أثمرت الحرية للشعب والاستقلال للبلاد ، أن نتعرف على أحوال الجزائر في ظل هذا الاحتلال الجائر، ومدى الصعوبات التي واجهها ابن باديس ، وفي الوقت نفسه ، وسائله وأسلحته التي قاوم بها هذا الاحتلال الاستيطاني المدمر ، كذلك مدى قدرته على توظيف الإرث العروبي الإسلامي، في استنهاض همم أبناء الجزائر وأجيالها من بعده، الذي بفضله

(١) قاسم ، المرجع السابق ، ص١٨ - ١٩ . وانظر أيضاً الراسي ، المرجع السابق ، ص١٧٢ - ١٧٣ . كذلك انظر وقارن *Also cf. Tibawi, op.cit., pp. 166-167.*

(٢) انظر العبدة ، المرجع السابق ، ص٥٨ .

تفجرت ثورة (٥ ربيع الأول ١٣٧٤هـ / الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤م) ، بكل ما تحمل من معانٍ تحررية ومبادئ وأهداف سامية تحض على تخليص الوطن من أيدي المحتلين الغاصبين . كذلك من المفيد تسليط الضوء على جرائم المحتلين الذين استمرأوا اغتصاب أجود وأخصب الأراضي منذ دخولهم الجزائر في (١٤ المحرم ١٢٤٦هـ ، ٥ تموز (يوليو) ١٨٣٠م واستمروا على نهمهم الاستعماري بعد مرور مئة عام على الاحتلال ، حيث كان اغتصاب الأرض ما زال يمثل أهم الأولويات في سياسة الحكومات الفرنسية المتعاقبة ، التي شجعت على الدوام الأفراد الفرنسيين خاصة ، والأفراد الأوربيين عامة على الهجرة والاستيطان في الجزائر !

وخير دليل على ذلك ، تشجيع الاستعمار الفرنسي على طرد أصحاب الأراضي الزراعية الخصبة ، الجزائريين وتقديمها للفرنسيين والأوربيين ، فأصبحوا بذلك يملكون ثلثي الأراضي الزراعية الخصبة - أي نحو ١٤ مليار هكتار ، بينما لا يزيد ما يملكه الجزائريون على سبعة ملايين كلها من الأراضي الضعيفة (الميتة) قليلة الإنتاج !! ومما يزيد وجه المستعمر الفرنسي بشاعة - يومذاك - أن الرأسماليين الفرنسيين كانوا يحتكرون أسواق الجزائر ما بين صادر ووارد . كما يحتكرون مناجم الحديد والفحم والرصاص والبترول والفوسفات في البلاد ، وكلها مناجم ثمينة بإنتاجها ويصدرون هذا الإنتاج «خاماً» إلى مصانع فرنسا !! [1] .

أما عن الموقف السكاني - الديموغرافي ، فيقول العسلي في هذا السياق : «لقد تداخلت مجموعة من العوامل لتشكل في الجزائر موقفاً سكانياً ديموغرافياً شاذاً وغريباً . من هذه العوامل :

---

(١) هيئة التحرير ، العربي (مجلة) ، المرجع السابق ، ص١٦ . انظر كذلك ، بسام العسلي ، **الله أكبر .. وانطلقت ثورة الجزائر** - ط٢ - بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٦م ، ص١٩ وما بعدها. كذلك انظر ، رابح ، المرجع السابق ، ص١٠٢ .

١ - إلى جانب اغتصاب الأرض الجزائرية الخصبة من أصحابها الشرعيين .

٢ - فتحت سلطات الاحتلال أبواب الهجرة أمام الأوربيين ومنحتهم امتيازات كبيرة على حساب المواطنين الجزائريين .

٣ - عدم توافر مجالات العمل الزراعي أو الصناعي ، واضطرار أبناء الريف (الجزائريين العرب المسلمين) للزحف نحو المدن ، أو حتى الهجرة من البلاد .

٤ - التفجر السكاني في الجزائر الذي يعتبر استجابة طبيعية مضادة لمحاولات القضاء على العنصر المسلم (عربي وبربري) [1] . وقد أظهر الإحصاء الذي

(١) البربر ، كلمة دخيلة على لغتنا العربية وأصلها جاء من الكلمة اللاتينية - تحريفاً واشتقاقاً - *Barbarain* . التي تعني شخص أجنبي ، غير يوناني . غير متمدن ، وفي المجاز «المتوحش والهمجي» وهي الصفات التي أطلقتها الإمبراطورية اليونانية والرومانية على الشعوب من غير رعاياها الخاضعة لسيطرتها ، حتى لو كانت أكثر منها تحضراً وأعرق منها قدماً في تاريخ الحضارة الإنسانية . ومن المعروف أن الاحتلال الروماني (البيزنطي) لشمال إفريقيا ، ردحاً من الزمن وحتى طردهم على يد عقبة بن نافع (ت ٦٣هـ / ٦٨٣م) . عاملوا الشعوب المغلوبة ، بأنها أدنى مرتبة منهم وإنها «بربرية» أي غير متمدنة لا ترقى لمستوى الطبقة الحاكمة (البيزنطية) ومع الزمن اختفت الهوية البربرية عندما كان العرب والمسلمون في غاية الوحدة السياسية والروحية ، لكن عندما انتفت هذه الوحدة ، وأطلت الفتن برأسها ، في العصر الحديث ، خاصة ، وتفاقمت حدة الصراعات والانقسامات بين العرب حتى داخل البيت الواحد ، أخذ الأعداء بترويج الإدعاءات الزائفة بأن العرب متعددو الأصول وليسوا أمة واحدة .. فالمصريون فراعنة ، وأهل العراق آشوريون ، وأهل أفريقيا بربر ، وهكذا!! مع الأسف ، علماً أن أعداء أمتنا يعلمون أن كل شعوب العرب يلتقون بأرومة عربية صريحة ، ويرجعون إلى أصل واحد . وإن وجدت بعض الاختلافات في الصفات ، فهي اختلافات في الصفات الثقافية وليست في الصفات الجنسية . لقد أحيا الفرنسيون الأسلوب نفسه في الجزائر لمحاربة الشعب الجزائري في عقيدته أولاً ثم في لغته وهويته ثانياً .. وهي التي زرعت الفتنة بين «البربر» والعرب في المغرب العربي وفي الجزائر خاصة ، وأنشأت معاهد الدراسات البربرية في فرنسا ، واهتمت بتعليم البربر أو (الأمازيغ) اللغة الفرنسية .. علماً أن الأمازيغية نفسها كلمة عربية كما وردت في لسان العرب مادة «الأمازر» ويقول محررو مادة «بربر» في الموسوعة الفرنسية «يونيفيرساليس» : اللغة «البربرية» في استعمالها الحالي هي ==

أُجري في الجزائر في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أن عدد سكان البلاد وصل إلى حوالي أكثر من ٩ ملايين نسمة منهم ٨ ملايين تقريباً من الجزائريين، وأقل من مليون من الأوربيين[١].

من المعروف أن نسبة الجزائريين للأوربيين في منطقة قسنطينة تبلغ أعلى النسب إذا قارناها بالمقاطعات الأخرى ، وهذا ما جعلها الصخرة الصلبة التي تبنى

= امتداد لصيغ اللغة العربية . من المعروف أن ابن باديس نفسه ، لم يجهر في حياته بنسبه إلى بيت بربري ، متباهياً أبداً بانتمائه بهويته العربية الإسلامية ، متأسياً برسول الله ﷺ الذي نقل العرب من مفهوم القبيلة إلى مفهوم الأمة ، ومن مفهوم العصبية القومية إلى مفهوم رسالة الإسلام العالمية . وقد حسم الأستاذ الدكتور عثمان سعدي الجدل حول عروبة البربر (الأمازيغ) بدراسته العلمية الجادة التي ترتقي إلى حد المسلمات والتي تناول فيها المسألة البربرية عبر ستين مصدراً رصيناً . للإفادة من هذه الدراسة العلمية الوافية حول مسألة عروبة البربر ، انظر عثمان سعدي ، الأمازيغ «البربر» .. عرب عاربة - وعروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ ·- الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٦م . ويتناغم الأستاذ الدكتور أحمد العبادي مع السعدي بالرأي نفسه بإرجاع نسب البربر إلى أصول عربية سامية صريحة ، للدراسة والإطلاع انظر أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ·- الإسكندرية : مؤسسة الثقافة الجامعية ، د . ت . ص١٥ وما بعدها . انظر فهمي هويدي ، «نسألك اللطف في المقادر وتجنب الخلف مع إخواننا البرابر» في الشرق الأوسط، (جريدة) العدد ٨٢٣٨ ، ١٨ حزيران (يونيو) ٢٠٠٠م ، ص١٩ ، كذلك انظر وقارن *W. Wilson Arab Religion in the Non- Arab Cash, the Expansion of Islam-An World-Edinburgh House Press, London, 1928, pp. 169-170.* وعن البُعد اللغوي لكلمة *Barbarian* اللاتينية ومشتقاتها في هذا السياق انظر *See World Book (The) op. cit., vol., 2, pp.104-105.*

(١) للمزيد من التفاصيل عن الموقف السكاني - الديموغرافي ونهب الاستعمار الفرنسي المنظم لثروات الجزائر وخيراته ، انظر العسلي ، **الله أكبر .. وانطلقت**، المرجع السابق ، ص٢٣ وما بعدها . وقارن هيئة التحرير ، «الجزائر : وصمة العار الخالدة في جبين فرنسا» ، في **العربي** (مجلة) العدد ٢٣ ، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠م ، ص٣٥-٤٢ .

عليها القاعدة الأولى للثورة والإصلاح التي أرادها عبدالحميد بن باديس وجماعته . لقد ترافق الانفجار السكاني خلال المرحلة التي سبقت الثورة بهجرة واسعة النطاق ، سواء داخل الجزائر ذاتها - من الريف إلى المدينة - أو من الجزائر إلى فرنسا ، وعلى الرغم من بقاء الجزائر بلداً زراعياً في المقام الأول ، إلاّ أن عدد سكان المدن بلغ في عام (١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م) أربعة أضعاف ما كان عليه هذا العدد في عام (١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م) في حين لم يتزايد عدد السكان في المناطق الريفية خلال المدة نفسها إلاّ بنسبة ضعيفة . لعل تأثير هجرة الجزائريين إلى المدن الرئيسة في بلادهم في ظل الظروف المعاشة مع الاستعمار الأوربي الفرنسي يبقى من الأمور المثيرة حقاً(١) .

أما ما يتصل بسياسة فرنسا تجاه الشعب الجزائري والشخصية العربية الإسلامية ، فقد كانت على الدوام تعمل على تحطيم ومحو هذه الشخصية منذ اليوم الأول الذي احتل فيه جيشها أرض الجزائر ، ولعل من أبرز الوسائل التي لجأ إليها الاحتلال لطمس الشخصية الجزائرية ، وشطب الهوية العربية الإسلامية للجزائر ، قد تجلت في أساليب البطش والقمع الخفية والظاهرة في :

١ - القضاء على الدين الإسلامي ، حيث أدركت فرنسا أنه ما دام الإسلام والعروبة قائمين في الجزائر ، فإنه لا وجود لها فيها .

٢ - القضاء على الثقافة العربية الإسلامية .

٣ - القضاء على اللغة العربية (لغة القرآن الكريم) الوعاء الفكري والثقافي العربي الإسلامي الوحدوي في الجزائر .

٤ - القضاء على الجنسية الجزائرية .

٥ - تشويه تاريخ الجزائر النابع من الحضارة العربية الإسلامية .

---

(١) انظر العسلي ، **الله أكبر .. وانطلقت** ، المرجع السابق ، ص٢٧ .

٦ - العمل على تفكيك الوحدة الوطنية للشعب الجزائري عن طريق إثارة الفتن طبقاً للسياسة الاستعمارية المتوارثة (فرق تسد)[١] .

انسجاماً مع أهداف هذه السياسة الاستعمارية العمياء ، لم تتورع فرنسا عن تخريب وتدمير معاهد العلم الإسلامية التي كانت تشع بنور العلم والمعرفة في الجزائر قبل الاحتلال ، وشردت علماء هذه المعاهد وطلابها ، وحولت ما تبقى من مساجد إلى كنائس ، وأهدت بعضاً منها لليهود ، الذين حولوها بدورهم إلى معابد لهم ، ثم تمادت فرنسا في غيها ، بإصدارها مراسيم اعتبرت الجزائر بمقتضاها جزءاً لا يتجزأ منها ، وإمعاناً منها في تحطيم وطمس الهوية الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية سرَّعت في محاولتها القضاء على اللغة العربية وإماتتها ، بإصدارها سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م) قانوناً جعلت فيه لغة القرآن في الجزائر لغة أجنبية !! وقد سبق هذا القانون الفرنسي المأساوي الجائر ، قانون أكثر ظلماً وتعسفاً صدر في وقت مبكر من عام ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م) يمنع تولي أي جزائري إدارة أي مدرسة لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي إلاّ إذا حصل على رخصة من الحاكم العسكري في المناطق التي تخضع للحكم العسكري المباشر .

هذا وقد حالت القوانين الاستعمارية الفرنسية في الجزائر دون منح أي تراخيص لفتح أي مدرسة عربية في الجزائر إلا وفق شروط تعجيزية منها :

١ - اقتصار التعليم على تحفيظ القرآن الكريم وحده .

٢ - عدم التعرض - بأي صورة من الصور إلى تفسير القرآن الكريم خاصة الآيات التي تحض على الجهاد في سبيل الله وتخليص البلاد من الظلم والظالمين والمستعمرين .

---

(١) رابح ، المرجع السابق ، ص١٠٣ .

٣ - شطب التاريخ الجزائري والتاريخ العربي الإسلامي في المناهج الدراسية بالإضافة إلى جغرافية الجزائر وجغرافية العالم العربي الإسلامي .

٤ - إلغاء مقرر الأدب العربي بسائر فنونه وعصوره ... أما عن التعليم في المدارس الرسمية ، فقد كان باللغة الفرنسية ، وكان تلاميذ الجزائر وطلابها لا يعرفون شيئاً عن جغرافية بلادهم سوى أنها مقاطعة أو محافظة فرنسية ، أما التاريخ فكان على الجزائريين أن يتعلموا منه أن أجدادهم الغالبون (أجداد فرنسا القدماء)[١] .

من هنا أدرك ابن باديس عظم المسئولية ، وأن من أهم عناصر القوة للتأثير في المجتمع الجزائري ونجاح الدعوة للنهضة في مجال الإصلاح الديني والاجتماعي والوطني .. لا يتحقق إلاّ عبر وسيلتين أساسيتين المدارس والصحف ، ومن ثَمَّ ، لا بد من أخذ زمام المبادرة والعمل تحت أي ظروف وأي مناخ وأجواء مهما بلغت التضحيات . يتحدث الإبراهيمي عن بدايات هذه الخطوات الحركية المبكرة للصحوة الإسلامية الجزائرية قائلاً : «إن الإسلام الجزائري عام ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) كان موزعاً على منهجين نهج الزوايا المنتشرة في الريف بشكل خاص ، ونهج العلماء الذين انطلقوا من المدن وأرادوا التركيز على تعليم الجماهير ، مستندين في ذلك على سلاحين أساسيين هما : الصحافة والمدرسة : وقد ساعدهم على ذلك وجود بعض المطابع مثل مطبعة ابن خلدون في تلمسان ، ومطبعتي العربية والثعالبية في الجزائر ، والنهضة والشهاب في قسنطينة ، وهكذا استكملوا العدة الفكرية والمادية لحركتهم : أفكار محمد عبده خاصة ، تلك المتعلقة بالاجتهاد وحرية

(١) المرجع نفسه ، ص١٠٣ - ١٠٤ . أيضاً انظر وقارن *Also see and cf. op. cit., pp. 165-170.*

الفكر والقرار ، أثر مجلة المنار ، وكتب الإصلاحيين ، رواسب الحرب الأولى ، العودة من الحجاز ، امتلاك المطابع ، نشر الصحف ، تطوير التعليم ... لقد ألحوا أول الأمر على إحياء التاريخ الجزائري ... بهدف التعريف بسير العظماء وبعث الشخصية الوطنية»[1] .

أما ما يتصل بالمدارس فسرعان ما انتشرت في مختلف أنحاء الجزائر ، فقد بلغ ما فتح الإصلاحيون منها - جمعية علماء المسلمين الجزائريين خاصة - حتى العام (١٣٦٥هـ / ١٩٤٥م) حوالي ١٥٠ مدرسة موزعة في مختلف أنحاء الجزائر ، وقد وصل عدد تلاميذها إلى أكثر من ٤٠ ألف طالب أي ثلث عدد التلاميذ المسجلين في ذلك الوقت في المدارس الفرنسية ... ومن الملفت للنظر أن العلماء افتتحوا أول مدرسة للبنات عام (١٣٣٨هـ / ١٩١٩م) في سيدي بو معزّة ، مما يدل على سعة أفقهم فيما يتصل بتعليم المرأة ، ومن مبادرات ابن باديس تشجيع المرأة على طلب العلم ، وإقرار مجانية التعليم للبنات ، وفي هذا يقول : «ندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة بأبنائهم وبناتهم إلى المكتب (مكتب جمعية التربية والتعليم بقسنطينة) . فأما البنون فلا يدفع منهم واجب (الرسوم) إلاّ القادرون ، وأما البنات فتعليمهن كلهن مجاناً ، لتتكون منهن - بإذن الله - المرأة المسلمة المتعلمة . ولا شك فقد تعرضت المدارس العربية وذات الصبغة الإسلامية إلى مضايقات مستمرة غير عادية من قبل سلطات الاحتلال ، بما فيها قرارات الإغلاق ، لكنها استطاعت بطريقة أو بأخرى أن تتجاوز المصاعب والمكائد وتؤدي رسالتها ، معتمدة على مواردها الذاتية ، ودعم الميسورين الغيورين لها . نجح الإصلاحيون بزعامة ابن باديس في استكمال إنشاء المدارس بافتتاح النوادي الفكرية والثقافية في معظم

(١) الراسي ، المرجع السابق ، ص١٧٤ .

المدن الجزائرية على غرار «دار الحديث» التي تم تأسيسها في تلمسان بتشجيع الإبراهيمي ، وتبنيه للمشروع سنة (١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م)[١] .

أما فيما يتعلق بنشاط ابن باديس الإصلاحي عن طريق الصحافة ، والذي جعله في المرتبة الثانية بعد دور المدرسة حركة التربية والتعليم العربية الإسلامية ، فإنه لا شك كان مؤثراً وفعالاً على كافة الشأن الجزائري ، خاصة جراء دعوتها لمقاومة الاستعمار وعملائه ... كان ابن باديس صحفياً «مهنة واحترافاً» نشأ شغوفاً بقراءة الصحف والمجلات العربية والأجنبية ، كالمنار للشيخ محمد رشيد رضا ، ومجلة الفتح لمحب الدين الخطيب ، وجريدة المؤيد واللواء ، ولوتو الفرنسية ، «وكان على يقين بالدور الفعّال الذي تمارسه الصحافة في توعية الجماهير والتأثير في أصحاب القرار ، وهذا حفزه على تأسيس مطبعة وإصدار جرائد لتحقيق أهدافه ودعم نشاطه التربوي خارج المسجد[٢] .

من الجدير بالملاحظة ، أن ظهور الصحافة العربية الجزائرية لم يبدأ إلاّ في أوائل القرن (١٤هـ / ٢٠م) وكان غالبها بجهود فردية . وكان تأثير هذه الصحف واضحاً بالصحف المشرقية التي كانت تصل إلى الجزائر كالعروة الوثقى ، المؤيد ، واللواء ، والفتح ، والأهرام ، والمقطم ، وغيرها . وجاءت نهاية الحرب العالمية الأولى لتظهر أولى الصحف الجزائرية القوية ألا وهي جريدة «النجاح» التي ظهر عددها الأول في (١٠ ذو الحجة ١٣٤٣هـ / ٢ تموز (يوليو) ١٩٢٥م) وبعد فترة قصيرة ساهم فيها ابن باديس تأسيساً وتحريراً ، رأى أن صحيفة النجاح أقل من أن توقظ الشعب الجزائري من سباته ، كما راهن هو ونخبة من جماعته الإصلاحيين ، فتركها

(١) انظر المرجع نفسه ، ص١٧٧ . انظر أيضاً حميداتو ، المرجع السابق ، ص١٥٢-١٥٣ .
(٢) عويمر ، المجتمع (مجلة) ، المرجع السابق ، ص٤٣-٤٤ .

ليؤسس صحافته الخاصة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، حالت سلطات الاحتلال الفرنسية دون استمرار صدور «النجاح» في بداية ظهورها ؟ ثم ما لبثت «النجاح» أن هادنت السلطات الاستعمارية التي سمحت لها بالصدور مجدداً في العام نفسه ، وظلت تصدر حتى زوال الاحتلال سنة ١٣٢٨هـ / ١٩٦٢م)[١] .

يقول محمد خير الدين في هذا السياق : «... الحركة الإصلاحية التي قام بها عندنا علماء الإسلام وفقهاء الشريعة الإسلامية عن طريق دروسهم بين تلاميذهم ومريديهم هي التي أخذت طريقها نحو التطور ، ودعت ضرورات تعميمها في كل الأوساط إلي مضاعفة الجهد، باتخاذ كل الوسائل الممكنة آنذاك لتحقيق هذا التطوير ، وهذا التعميم والشمول ، ودعت الحاجة إلى تنظيم صحافة ، وتأسيس خلايا للحركة في كل أنحاء البلاد ، بواسطة هؤلاء العلماء والفقهاء والمنبثين في كل نواحي الوطن . فكانت صحف : «المنتقد ، والشهاب ، والإصلاح وصدى الصحراء أولى هذه الصحف الإصلاحية الداعية إلى الله على بصيرة .. ثم فكر علماء الإصلاح وفي مقدمتهم الشيخ عبدالحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي على جمع هؤلاء العلماء في تنظيم خاص يعمل على جمع الكلمة، وإصلاح الأمة ، فكانت الدعوة الأولى في صحيفتي «المنتقد» و «الشهاب» دعوة إلى تأسيس «حزب إصلاحي» يقوم بواجب إصلاح العقيدة ، وجمع فلول الأمة ، ورفع المستوى الثقافي ، ونشر الوعي»[٢] .

ويضيف خير الدين قائلاً : «واختمرت هذه الفكرة في أذهان العلماء والفقهاء إلى حين احتفال السلطات الفرنسية ، بمرور مئة عام على احتلالها للجزائر سنة

---

(١) انظر مطبقاني ، المرجع السابق ، ص٦٨-٦٩ . انظر أيضاً الراسي ، المرجع السابق ، ص١٧٨ .

(٢) محمد خير الدين ، من تصديره لمجموعة جريدة البصائر - لسان حال جمعية علماء المسلمين الجزائريين ، المرجع السابق ، ص ط .

(١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)[١] وما دار في هذه الاحتفالات من استفزازات لمشاعر الأمة والوطن ، فتسارع هؤلاء العلماء إلى جمع كلمة الأمة في تنظيم ديني وثقافي واجتماعي، فكانت منهم «جمعية علماء المسلمين الجزائريين» سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م) ولم يمض على تأسيسها حتى بدأت أصابع «الولاية العامة» - وهي الممثلة الشرعية للحكومة الفرنسية وللاستعمار الفرنسي بالجزائر - في إشاعة الفتنة ، وبث أسبابها عن طريق بعض العملاء والمغرورين ، ولكن العلماء الإصلاحيين المخلصين ، استطاعوا بحكمتهم وفطنتهم أن يفوتوا على الحكومة وأعوانها هذه الفرصة، وخرجت الجمعية من هذه المحنة بفضل الله ثم بفضل النضال الدؤوب الواعي أكثر ما تكون قوة ووضوحاً ، وبدأت الدعوة الإصلاحية جهيرة صريحة ، وتجاوبت معها الأمة في مناطق الوطن ، وكان لا بد لهذه الحقبة الحاسمة في هذه الدعوة الإصلاحية من صحافة سيارة تحمل إلى الأمة أفكارها وأخبارها ، وتحمل إليها من الأمة مشاعرها ومطالبها واحتياجاتها ، فكانت هذه المجموعة من الصحف الأسبوعية لجمعية العلماء . «السُّنة المحمدية» ، و«الشريعة المطهرة» ، و«الصراط السوي» ، و«البصائر»، وهي صحف ختمت أيامها كما بدأت في وسط المعركة الحامية الوطيس، بين الحق والباطل ، والهدى والضلال، والعدل والظلم ، والخير

---

(١) بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال فرنسا للجزائر (١٢٤٦ - ١٣٤٩هـ / ١٨٣٠ - ١٩٣٠م) قامت سلطات الاحتلال بانتهاز المناسبة لإقامة احتفالات ماجنة - في مدينة الجزائر خاصة ، دامت حوالي شهرين ، وقد مست هذه الاحتفالات والحفلات ، بالشخصية الوطنية الجزائرية ، من هوية وعقيدة وثقافة ، بل لم يتردد الرسميون الفرنسيون في خطبهم بالمناسبة من التلفظ بعبارات - تجاوزت كل الأعراف والخطوط الحُمر لحقوق الإنسان والشعوب والأديان المحتلة والحرة - تؤكد عزمهم القضاء على الإسلام نهائياً في الجزائر والقضاء على العروبة قضاءً أبدياً فيها .. !! انظر رابح ، المرجع السابق ، ص١٠٤ .

والشر، وهذه الصحف كلها لسان حال جمعية العلماء التي علمت لخير الأمة ...»[1].

لم يلبث ابن باديس بعد تجربته القصيرة مع «جريدة النجاح» أن أدرك ضرورة إصدار صحف أخرى خاصة به ناطقة بمبادئ تربية وتوجيه وطني وإصلاحي وتجديد عن طريق التربية والتعليم مع الكفاح السياسي الوطني ما أمكن .. فكانت صحيفة «المنتقد» أول خطوة له على هذا الطريق الطويل ، حيث أصدر العدد الأول منها في (١١ ذو الحة ١٣٤٣هـ / ٢ تموز (يوليو) ١٩٢٥م) في مدينة قسنطينة . ونتيجة لقوة لهجتها وجراءة دعوتها في مقاومة الاحتلال الفرنسي وعملائه سارعت الإدارة الاستعمارية إلى إغلاقها بعد أن صدر منها ١٨ عدداً فقط . لا شك أن صحيفة «المنتقد» التي عنوانها وحده عبارة عن برنامج كامل ، قد أرادها ابن باديس تحطيماً لعالم قديم - لا يتفق مع روح الإسلام ولُبِّه - عالم كانت تهيمن عليه الزوايا والطرق الصوفية - والعقائد الفاسدة - ويحاول منع رياح التجديد (التغيير) من الدخول إليه بواسطة تجسيم شعارها آنذاك «اعتقد ولا تنتقد» وكأن ابن باديس ، أراد أن يقول ، من خلال اختيار هذا العنوان أن خلاصنا الحقيقي هو في القضاء على هذا الشعار ، وفي انتهاج النقد لكل ما هو قائم[2] .

بعد احتجاب صحيفة «المنتقد» أنشأ ابن باديس مجلة «الشهاب» في العام نفسه، وقد استمرت في الصدور حتى عشية قيام الحرب العالمية الثانية (١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م) حيث أوقفها ابن باديس مع شقيقتها جريدة «البصائر» بقرار منه ، حفاظاً

(١) محمد خير الدين ، المرجع السابق ، ص ط - ي .

(٢) الميلي ، المرجع السابق ، ص١٢ . انظر كذلك مطبقاني ، ص٧٠ . وللمزيد من التفاصيل عن خلفيات ظهور «المنتقد» وموقف ابن باديس من الطرق الصوفية وتنبيه الشعب الجزائري إلى خطرها الديني والاجتماعي ، وموقف الإدارة الفرنسية من دعوته ضدها ، راجع قاسم ، المرجع السابق ، ص٩١-٩٥ . أيضاً حميداتو ، المرجع السابق ، ص٩٩-١٠٠ .

على نهجه الإعلامي المستقل ، حتى يتحاشى ضغوط الإدارة الاستعمارية إلى نشر مواد إعلامية تهمها لا تتفق مع مبادئه الإسلامية ، ولا مع نهج مجلته الإصلاحي الديني الملتزم . يرى الميلي : أن اختيار ابن باديس «الشهاب» عنواناً لصحيفته الجديدة خلفاً لـ «المنتقد» - وما يوحي به هذا العنوان من طابع ديني - يدل دلالة واضحة ، أن ابن باديس أراد أن يوحي لأعداء الإصلاح والتغيير أن «الشهاب» سيكون الرسالة الشعلة التي تضرم النار في القديم البالي الميت الذي يريد أن يتحكم في الأحياء وفي المستقبل ، وإلى إنارة الطريق للجيل الصاعد ، نظراً لما في «الشهاب» من معاني النار والضوء(١) .

لقد أسهمت «الشهاب» بقوة في إحياء التاريخ الوطني ، وشجعت الأقلام الحرة على التخليص وغربلة التاريخ الجزائري من تشوهات الاستعمار الفكري والثقافي ، تجاوزت «الشهاب» حدود الجزائر لتصل إلى أقطار المغرب العربي كافة ، بل عملت على ربط الرأي العام في بلاد المغرب العربي من جهة ، مع أشقائه في مصر والأقطار العربية الأخرى التي حاول الاستعمار الفرنسي عزل الجزائر وفصلها عنها من جهة أخرى(٢) .

يقول الميلي : لم يفطن ابن باديس إلى أهمية العمل الصحفي فحسب ، بل إلى شروط نجاحه أيضاً ، ذلك عندما أراد أن يوفر أقصى ما يمكن من شروط النجاح لجريدته بواسطة مطبعة تكون ملكاً له ، حتى لا تكون الجريدة عبئاً عليه . من هنا كان تأسيسه الناجح «للمطبعة الجزائرية الإسلامية» بقسنطينة عام (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م) التي كانت تقوم بمختلف أنواع الطباعة فضلاً عن طبعها لمجلة «الشهاب» وحدها في مرحلة أولى و لـ «الشهاب» و«البصائر» في مرحلة ثانية . وليس من

---

(١) الميلي ، المرجع السابق ، ص١٢ .

(٢) انظر رابح ، المرجع السابق ، ص١٠٤-١٠٥ . انظر الراسي ، ص١٧٩.

المبالغة في شيء القول : بأن «المنتقد» كانت أول صحيفة جزائرية طلائعية بالعربية.. فعلى الرغم من الدائرة الإصلاحية الدينية التي كانت يصدر ضمنها «المنتقد» ثم «الشهاب» فإن الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والسياسية من الحياة الجزائرية ما لبث أن ظهر وتأكد»[١] .

ولإشعال نار المقاومة ضد الاحتلال وإبقائها حية متقدة لا تنطفئ ، أصدر ابن باديس صحفاً أخرى ، تدعو - كزميلتها «الشهاب» و«البصائر» إلى الإصلاح الديني والاجتماعي عن طريق التربية والتعليم ، كلها تدعو لمقاومة الاستعمار .. وتخليص البلاد من شره الوبيل ، لكن مثل هذه الصحف : كالشريعة المطهرة ، والسُّنة المحمدية ، والصراط السوي ، التي أسسها ابن باديس ما بين (١٣٥١ - ١٣٥٢هـ / ١٩٣٢ - ١٩٣٣م) لم تعمر طويلاً ، بسبب إغلال الاحتلال لها بعد صدور أعداد قليلة منها نظراً «لشدَّة خطورتها وعظيم تأثيرها في النفوس . ولم تكن المصادرة لتكفي في القضاء على دعوة القومية الجزائرية ، أو لتنقذ فرنسا من حصار ابن باديس الذي جمع معه الجزائر كلها ، إلاّ فئة - قليلة - من أعوان المستعمر ، أو المخدوعين فيه من رجال السياسة (المنتفعين)»[٢] .

- القومية الجزائرية والعربية وعالمية الإسلام في فكر ابن باديس :

أعطى ابن باديس ولم يبخل - كرائد من رواد الإصلاح المجددين - لوطنه الجزائر كل أسباب النهضة والترقي، معبراً بحركته ودعوته عن آمال شعب الجزائر وطموحاته، بل تجاوز شعاع دعوته ليصل البلاد العربية الإسلامية المجاورة وغير المجاورة .

«وإذا كانتِ النفوسُ كِباراً   تَعِبتْ في مُرادِها الأَجسامُ»

(١) الميلي ، المرجع السابق ، ص١٣ . انظر أيضاً رابع ، المرجع السابق ، ص١٠٤ . كذلك الراسي ، المرجع السابق ، ص١٨١ .

(٢) انظر قاسم ، المرجع السابق ، ص٢١ .

من أصعب الآثار النفسية والذهنية التي كان على ابن باديس محوها من نفوس الجزائريين - خاصة النخبة المثقفة منهم - النظرية الاستعمارية الفرنسية التي حاولت جاهدة أن ترسخ في عقولها مفهوماً ، بأنه : لا وجود لأي أمة جزائرية في التاريخ وأن الجزائر ما هي إلاّ كيان فرنسي - منذ الأزل - عضوياً ومصيرياً ! من جهته ، عمل ابن باديس بنجاح - بكل ما أوتي من قوة وما استطاع إلى ذلك سبيلاً - على دحض هذا الزعم الذي كاد مع الوقت أن يصبح من المسلمات ... من هنا تأتي أهمية طرح مغزى أو فحوى القومية الجزائرية عند ابن باديس ومفهوم القومية العربية وعالمية الإسلام في فكره ، في هذا السياق ، لعلنا في النهاية لا نجد أي تناقض في دعوته إلى القومية الجزائرية مع مفهومه للقومية العربية وعالمية الإسلام ، خصوصاً إذا أدى كل مسلم - وفق هذا المفهوم - واجبه نحو وطنه ودينه وبلاده .. ويكفي أن كتاباته خير دليل ، على سعة أفقه وأنه كان في الكثير منها فخوراً بالمزاوجة بين عروبته وإسلامه وانتمائه لوطنه الجزائر ، وكان في طرحه الفكري الإصلاحي التقدمي، سابقاً لعصره ، ومتقدماً على كل ما عرفته حركة النهضة في المشرق في الأربعينات من القرن ١٤هـ الثلاثينات من القرن ٢٠م . ونضرب على هذا مثلاً قوله : «ليس ما ندعو إليه ونسير على مبادئه من الإصلاح ، بالأمر الذي يخص المسلم الجزائري ولا ينتفع به سواه كلا ، فإن صحة العقيدة ، واستنارة الفكر، وطهارة النفس ، وكمال الخلق ، واستقامة العمل وهذا هو الإصلاح كله مما يشترك في الانتفاع به جميع المسلمين ، بل جميع بني الإنسان ، وإنما نذكر الجزائري ، لإشعاره بوجوده، فيعمل لإسلامه وجزائريته، فيكون ذا قيمة ومنزلة في المجموع»[1].

لا شك أن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، كانت بمثابة الوعاء

---

(١) انظر عويمر ، المجتمع (مجلة) ، المرجع السابق ، ص٤٤ . انظر كذلك الراسي ، المرجع السابق، ص١٨١ .

لكافة الأنشطة الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية التي أراد ابن باديس غرسها وبثها في الجزائر ، وهي بدورها تسلط الضوء لنا على البُعد الفكري لابن باديس ، جزائريته وعروبته وعالمية إسلامه ، وقد حاربت فرنسا جمعية العلماء بلا هوادة ، ووضعت في مسيرتها الدعوية كل العراقيل ، وأسباب التضييق والتخنيق ، على كافة الصعد ، بما فيه الإغلاق لبعض مدارسها ونواديها واعتقال الكثير من نشطاء الجمعية ، منهم العلماء أنفسهم ، بحجة عدم الحصول على رخصة من السلطات ! لقد عرف ابن باديس من خلال الجمعية وأوعيتها الدعوية من مساجد وصحافة وتربية وتعليم .. كيف يصارع الاحتلال الفرنسي ، وينقذ من براثنه عروبة الجزائر وإسلامها . فعلى الرغم من أن الفصل الثالث من القانون الأساسي لجمعية العلماء يحرم عليها الخوض في المسائل السياسية - حسب شروط قوانين الاحتلال - إلاّ أن الجمعية تركت لأعضائها كامل الحرية انتصاراً لشعبهم وأمتهم الخوض في السياسة بصفتهم الشخصية لا بصفتهم أعضاء في الجمعية - تحايلاً على القانون - حفاظاً على كيان الجمعية واستمرار مسيرتها(١) .

يقول الكاتب الفرنسي مارسيل إمريت *Marcel Aymrit* : «طوي قرن الاحتلال الفرنسي لهذا الوطن في أقل من عشر سنين (١٣٤٩ - ١٣٥٩هـ / ١٩٣٠ - ١٩٤٠م) وهي الفترة التي كانت صحف جمعية العلماء تخوض غمار النهضة الوطنية الكبرى، وتطور الكفاح المرير ، وتعبئ النفوس بروح التصدي والمقاومة، وترسم الأهداف المثلى للحياة الحرة الكريمة ، أو نيل فضيلة الاستشهاد ... وقد وضع إمريت *Aymrit* هذا أعمال فرنسا التمدنية في مدة قرن من الاحتلال (١٢٤٦ - ١٣٤٩هـ/١٨٣٠ - ١٩٣٠م) في كفة، ووضع أعمال جمعية المسلمين الجزائريين في أقل من عشر سنين (١٣٤٩ -

(١) انظر حميداتو ، المرجع السابق ، ص٩٨ . وانظر أيضاً الراسي ، المرجع السابق ، ص١٤-١٨٦ .

١٣٥٩هـ/١٩٣١ - ١٩٤٠م) في كفة أخرى من الموازنة ، فحكم برجحان هذه على تلك من حيث بناء الكيان ، كيان الأمة الجزائرية الموحدة أهدافاً وعقيدة [١] .

لقد حطمت جمعية العلماء بقيادة ابن باديس - في النفوس والعقول - جدار الرعب - الذي زرعته فرنسا بالحديد والنار في نفوس الجزائريين (وطوقت به كالسوار في المعصم البلاد والعباد) ، برفع سلاح العروبة والإسلام في وجه المستعمر الطاغي ، محارباً بعزيمة لا تلين ، كل ما يمس عروبة الجزائر وإسلامها ، ومنفتحاً على عالمه العربي والإسلامي بآلامه وآماله .. انفتاحاً واتصالاً فكرياً وروحياً .. صحيح أن المراقبة الفرنسية المشددة حالت دون تبادل المراسلات بينه وبين الجماعات الإصلاحية النهضوية في المشرق وأحبائه هناك ، ولكن الاتصال عن طريق الأفراد كان موصولاً غير منقطع .. فمن قضايا الأمة وهمومها التي أدمت قلب ابن باديس وإخوانه في جمعية العلماء المسلمين كانت محنة الليبيين وما تعرضوا له من فظائع على يد الإيطاليين ، ولعل أهم القضايا العربية الإسلامية التي شغلت بال ابن باديس أيضاً بعد قضية الجزائر ، كانت قضية فلسطين ، فعلى الرغم من وفاته قبل تأسيس الكيان الصهيوني الباطل بثماني سنوات ، إلاّ أنه بثاقب بصيرته ، كان على دراية بما يبيَّت لفلسطين وأهلها .. وأقصى ما كان بمقدوره أن يفعله - وقتذاك - ضد المخططات الصهيونية المختبئة وراء قوى عظمى معادية لأمتنا ، وفي أواخر أيامه (يرحمه الله) خاصة إرسال برقيات الاحتجاج إلى وزارة الخارجية الفرنسية . يكفي الإشارة هنا إلى أن أحد أسباب تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى جانب أمور أخرى تهدف إلى جمع وحشد القوى والطاقات تحت راية واحدة لمواجهة التهديدات والأخطار المحدقة بالأمة، كان التحضير للمؤتمر

(١) محمد الحسن فضلاء ، من مقدمته ، لمجموعة جريدة البصائر - لسان حال جمعية المسلمين الجزائريين ، المرجع السابق ، ص أ - ب .

الإسلامي الذي عقد في القدس برئاسة الحاج أمين الحسيني (١٣١٤ - ١٣٩٥هـ / ١٨٩٦-١٩٧٥م) في شهر (رجب ١٣٥٠هـ/ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣١م) وكان هدفه توحيد الصف الإسلامي بعد سقوط الدولة العثمانية . لا غرو ، أن ابن باديس أبدى طوال حياته استجابة فكرية وروحية غير عادية، لكل ذي صلة، بقضايا عالمه العربي والإسلامي ولم تأخذه أبداً بلاده وشعبه من أمته ، بل اتسع قلبه الكبير للجميع(١) .

من خلال محاضرة ألقاها ابن باديس على أعضاء جمعية التربية والتعليم عنوانها «لمن أعيش ؟» يمكن لنا أن نقف على عمق انتماء هذه الشخصية الإسلامية الأصيلة لدينها ، وإخلاصها لوطنها وإيمانها بعروبتها ، وكيف زاوج بوضوح مفهوم الوطنية والعروبة والإسلام في فكره وعقيدته . هذا ما ظهر جلياً من خلال محاضرته ، التي بدأها بالرد على سؤال - «لمن أعيش أنا» .. بقوله : «أعيش (أنا) للإسلام والجزائر ، وقد يقول قائل إن هذا ضيق في النظر ، وتعصب للنفس ، وقصور في العمل ، وتقصير في النفع ، فليس الإسلام وحده ديناً للبشرية ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان ، ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية ولكل دين من أديانها حق في الاحترام»(٢) .

---

(١) انظر مطبقاني ، المرجع السابق ، ص١٢٣ وما بعدها . كان للقضية الفلسطينية في جريدة البصائر ، المرجع السابق ، وغيرها من صحف جمعية العلماء خاصة «الشهاب» حضور مميز ، وقد أظهر ابن باديس على الرغم من شواغله بقضايا شعبه وهمومه ، أن فلسطين وشعبها تحتل مكاناً واسعاً في قلبه وجوارحه ، انظر على سبيل المثال لا الحصر: الأعداد ٢٤، ١٩ ، حزيران (يونيو) ١٩٣٦م ، ص٧ ؛ ٢٧ ، ١٠ تموز (يوليو) ١٩٣٦م ص ٨ ، ٣٤ ، ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٦م ، ص٧ ، ٤١ ، ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٦م ص٦ ، ٤٢ ، ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦م ص٦ ، ٤٥ ، ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ ، ص٤ ، ٦ .

(٢) عبدالحميد ابن باديس ، «لمن أعيش ؟» في **البصائر** (جريدة) ، المرجع السابق ، العدد ٤٨ ، ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٦م ، ص١ .

فأقول .. إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي إليه ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونقلها دون واسطة ، فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع .. ونحن لما نظرنا في الإسلام وجدناه الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها . فإذا عشت للإسلام فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها ، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها ، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذي ندين له ونعيش له ونعمل من أجله فهذا هو معنى قولي إنني أعيش للإسلام[١] .

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي يربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص ، وتفرض علي تلك الروابط لأجله - كجزء منه - فروضاً خاصة وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة ، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة . وكما إنني كلما أردت أن أعمل عملاً وجدتني في حاجة إليه ، إلى رجاله وإلى ماله ، وإلى حاله ، وإلى آلامه وإلى آماله ...

كذلك أجدني إذا عملت قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه وهكذا . هذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كل حال وفي جميع الأعمال ، وأحسب أن كل ابن وطن يعمل لوطنه لا بد أن يجد نفسه مع وطنه الخاص في مثل هذه المباشرة وهذا الاتصال[٢].

نعم إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا وهي دائماً منا

(١) المرجع نفسه ، ص١ - ٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٢ .

على بال ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص . وأقرب هذ الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى (تونس) والمغرب الأقصى (مراكش) اللذان ما هما والمغرب الأوسط (الجزائر) إلا وطن واحد لغة وعقيدة ، وأدباً ، وأخلاقاً وتاريخاً ومصلحة ، ثم الوطن العربي والإسلامي ثم وطن الإنسانية العام . لن نستطيع أن نؤدي خدمة مثمرة لشيء من هذه كلها إلا إذا خدمنا الجزائر ... ويختتم ابن باديس محاضرته قائلاً : فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للإضرار بسواها - معاذ الله - ولكن لننفعها وننفع ما اتصل بها من أوطان ، الأقرب فالأقرب، وهذا مرادي «إني أعيش للجزائر»[1] .

يرى الميلي : أن النزعة الإنسانية عند ابن باديس لا تتسع للظالمين والمستعمرين وأنصارهم ، والشاهد على ذلك ، يقول ابن باديس في مقال كتبه عام (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م) رداً على موقف اتخذه نفر من الجزائريين المتفرنسين ضد الثقافة العربية: إننا أعلنا ولا نزال نعلن بأننا شعب من أشد الواجبات عليه الاحتفاظ بما في الماضي من نفع ومدنية ، وعدم الزهد فيما في الحاضر من خير ومدنيات والإعراض عن الثرثرة بدون تفكير ولا روية . وفي عدد «الشهاب» الصادر بتاريخ (ذو القعدة ١٣٥٦هـ / كانون الثاني (يناير) ١٩٣٨م) خصص عدداً للشهيد عمر المختار ، وتحدث عن مساوئ الاستعمار وفظائعه ، ثم عقب ذلك بتوضيح جاء فيه : إننا نفرق جيداً بين الروح الإنسانية والروح الاستعمارية في كل أمة فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها ، نوالي تلك ونؤيدها . لأننا نتيقن كل اليقين أن كل بلاد العالم

(١) المرجع نفسه . انظر أيضاً وقارن رابح ، المرجع السابق ، ص١٠٥-١٠٦ . كذلك الميلي ، المرجع السابق ، ص٥٤-٦٠ ، ٢١١ ومابعدها .

هو من هذه ، وكل خير يرجى للبشرية إنما يكون يوم تسود تلك . فلتسقط الروح الاستعمارية ولتندحر ولترتفع الروح الإنسانية ولتنتشر [١] .

والشخصية الوطنية عند ابن باديس - كما يراها الميلي - تتشكل من مقومات إيجابية إنسانية ، تتحد بها ولا تتحد من خلال خطوط سلبية أو مواقف ضد شيء ما ؛ لأن التحديد بالسلب يتنافى مع البناء ، وعلى هذا الأساس فهي خلو من كل تعصب ومن كل حقد ومن كل عنصر هدام .. إلا أن يكون ظلماً أو استعماراً ، فآنذاك لا بد من الاصطدام ولا مناص عنه ، لذلك كتب عام (١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م) يقول : «نهضتنا نهضة بنيت على الدين أركانها ، فكانت سلاماً على البشرية لا يخشاها - والله - النصراني لنصرانيته ، ولا اليهودي ليهوديته ، بل ولا المجوسي لمجوسيته ، ولكن يجب والله أن يخشاها الظالم لظلمه ، والدجال لدجله والخائن لخيانته»[٢] .

في الحقيقة ، بدأ ابن باديس فلسفته النظرية والعملية بمحاولة إحياء القرآن في قلوب مسلمي الجزائر ، حتى يبعثهم إلى الحياة بدورهم . وكان هذا الإحياء للقرآن عن طريق تفسيره وفقاً لمنهج السلف ، ومعنى ذلك أنه أراد تطهير العقائد من الأوهام والأباطيل التي شوهتها ، فجعلت الدين يبدو في نظر كثير من المؤمنين به كما لو كان مضاداً للعقل ، كما ثبتت مفاهيم دينية خاطئة انتهت بتثقيف الأمة وكادت تقضي على مقوماتها الأساسية[٣] .

من هنا كان إدراكه لأسباب التوفيق بين التراث والعروبة ويتساءل الميلي : ما هو الإطار العام الذي تندرج فيه الشخصية الوفية للجزائر ؟ أو بعبارة أدق هل كان الإطار الذي تستلزمه مثل تلك المقومات الأساسية واضحاً عند ابن باديس ؟ ؛ لأن

(١) الميلي ، المرجع السابق ، ص٥٣ .

(٢) الميلي ، المرجع نفسه ، ص٥٣ .

(٣) انظر قاسم ، المرجع السابق ، ص٨٣ .

اعتماد التراث العربي الإسلامي . واعتماد اللغة العربية واعتماد الانصهار الذي تم في إطار الحضارة العربية الإسلامية ، يستلزم إطاراً واضحاً هو إطار القومية العربية . فإلى أي مدى كان هذا الإطار واضحاً عند ابن باديس أم أن هذا الإطار تمييع في دعوة إسلامية مبهمة (غامضة) كما هو واقع عند كثير من رجال الدين التقليديين ؟ الجواب يقول الميلي : إن إطار القومية العربية كان واضحاً عند ابن باديس فقد كتب في (ربيع الأول ١٣٥٥هـ / حزيران (يونيو) ١٩٣٦م) مقالاً بعنوان «محمد رجل القومية العربية» وهو يفسر هذه التسمية ويعللها تعليلاً منطقياً دقيقاً قائلاً : «... محمد ﷺ وهو رسول الإنسانية ، كانت أول عنايته موجهة إلى قومه» .. ثم يضيف معللاً «لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل نفسه» أي يرى ابن باديس أن الأقربين أولى بالمعروف أولاً ثم من هم أبعد من أمته ، ثم الأبعد (أي الإنسانية) وابن باديس يرى عندما يسير على طريق القومية العربية أنه يقتدي برسول الإنسانية ورجل الأمة العربية الذي اهتدى بهديه وسلك الترتيب المتلقي نفسه الذي استنتجه من خاتم الأنبياء محمد ﷺ حيث بدأ بتحديد مقومات الشخصية الجزائرية ، ثم تدرج إلى تحديد المدار الصغير لهذه الشخصية هو «المغرب العربي ...» ثم يجعل الإطار الذي يأتي مباشرة بعد المغرب العربي هو الوطن العربي الإسلامي[1] .

فابن باديس بهذا التصنيف ، يضيف الميلي : يتميز عن سائر علماء الدين الذي اشتغلوا بالفكر السياسي ، فهو لا يتحدث عن وطن عربي ، ثم عن وطن إسلامي ، ولا يجعل الإسلام قومية متكاملة يمكن لوحدها أن تشكل وحدة .. لكنه يتحدث عن «وطن عربي إسلامي» أي وطن عربي يعتمد أساساً على التراث العربي الإسلامي . أي أن ابن باديس .. قد أعطى القومية العربية منذ (١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م)

---

(١) الميلي ، المرجع نفسه ، ص٥٤-٥٥ .

نفس المحتوى الذي يتجه نحو الفكر العربي التقدمي الحديث الآن .. لا غرو إذاً ، أن نجد ابن باديس ينادي بالإسلام المنفتح على قضايا العصر ، ويحارب الإسلام الوراثي الذي لا يمكن أن ينهض بالأمة ، ويرى أن الإسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر»(١).

وفي نظرة أكثر شمولية وتحديداً لدور العرب الريادي في الحضارة الإنسانية، دافع ابن باديس بحرارة عن الشخصية العربية ، حتى قبل الإسلام ، ففي محاضرة ألقاها في نادي الترقي بمدينة الجزائر عام (١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م) بعنوان «العرب في القرآن الكريم» تناول ما للعرب من إسهامات حضارية باقية لا تنسى ، وهذه خلاصة بأهم ما جاء بمحاضرته : «الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء ، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها ، ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف، والأنبياء لم يبعثوا إلا في مناسب الشرف ، ومنابع القوة ، ومنابت العز .. لأن الأمة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ عليه . ثم هي أمة لا يعتمد عليها في النهوض بنفسها ولا بغيرها . وإنما ذكرها الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس وهو إحياء الشرف الإنساني في نفوسها ، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم .. وإن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعمدون إلى قتل الشرف من النفوس ليذلوا من هذا النوع ما أعز الله ، ويهينوا ما كرم الله .

والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر . وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة في اختيار الله للعرب ، للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل . وهذا السر هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذي هيأهم لذلك. ولو كانوا أذلاء لما تهيأوا لهذا العمل العظيم . إن

(١) الميلي ، المرجع نفسه ، ص٥٦-٥٧ . انظر أيضاً الراسي ، المرجع السابق ، ص١٨٢-١٨٤ .

الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله»[1] .

لاريب، أن من يتعمق في كتابات ابن باديس يجده في الجانب السياسي متأثراً بالأفغاني (جمال الدين) الذي كشف عن آثار الاستعمار الإنجليزي في الشعوب الإسلامية، وكان العلاج الذي يقترحه الأفغاني «هو تمسك المسلمين بإسلامهم، وعلى وجه أخص الجهاد في سبيل الله والقيام به، ومن هذا المنطلق، كان يرى ضرورة الثورة على الاستعمار الغربي مصدر الفساد والضعف في الحياة الخاصة والعامة للأمة الإسلامية في آسيا وإفريقيا .. أما في الجانب العلمي والتربوي وهو الجانب الذي استأثر بمعظم نشاطات ابن باديس التربوية والتعليمية . فنجد أثر الشيخ محمد عبده واضحاً في هذا الجانب .. فالشيخ محمد عبده «اشتغل لأمته مصلحاً مجدداً عن طريق التربية والتعليم (لتحرير العقل) في الوقت الذي ذم فيه السياسة واجتنبها»[2] .

لم يتفق الشيخ محمد عبده مع أستاذه الأفغاني ، إعلان الثورة الدينية على المستعمر ، باسم الجهاد في سبيل الله كيفما اتفق - أي دون استعداد - وإن هو اتفق معه ، أن العلاج لخروج المسلمين من حالتهم المزرية ، هو التمسك بالإسلام ، لكن أراد الشيخ عبده أن يحدد ما هو الإسلام الذي يجب أن يلجأ إليه المسلمون في الخروج من حالتهم المزرية الذليلة تلك .. ثم عندما حدد الشيخ محمد عبده الإسلام الذي يجب أن يتمسك به المسلمون رأى أن اتخاذ الثورة - قبل إعداد العدة لها -

---

(١) نقلاً عن قاسم ، المرجع السابق ، ص١٤١ .

(٢) محمد البهي ، «**اتجاهات الفلسفة الإسلامية** - وكيفية مجابهة الأفكار الحديثة في المجتمعات الإسلامية - «في الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، - بحوث ودراسات إسلامية - (كتاب)٠- ط٢ ٠- القاهرة ، نيويورك : مكتبة النهضة المصرية ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ١٩٦٢م، ص٩٤ . انظر كذلك ، قدري قلعجي ، **ثلاثة من أعلام الحرية، جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، سعد زغلول** ٠- بيروت : دار الكاتب العربي ، د . ت . ص٢٥٠ - ٢٥١ . انظر حوراني ، المرجع السابق ، ص١٤٣ وما بعدها .

وسيلة لإخراج المستعمر من بلاد الشعوب الإسلامية ، يتصل بالعاطفة والحماسة الوطنية أكثر مما له صلة بواقع الأمر . من هنا رأى أن يتخذ المسلمون وقادتهم أسلوباً آخر ، هو ما اتخذه المسلمون الأُول في تكوين جماعتهم ، وهو تنشئة المسلمين وتربيتهم ، وتوجيههم بأفكار إسلامية سليمة بعيدة عن الانحراف في فهمها ، وبعد تنقيتها مما علق بها من شوائب منذ زمن طويل[1] .

وضرب الشيخ عبده مثلاً عملياً لتجديد الإسلام الذي باشره ، وتنقية ما علق به من شوائب على مر الزمن ، فقدم للمكتبة العربية الإسلامية كتباً في غاية الأهمية ، منها رسالة التوحيد الشهيرة في (العقيدة) ومنها بعض الكتب العقلية المتداولة ، وله محاولة غير مسبوقة في تفسير القرآن الكريم سار على نهجه كثيرون بعده . كما أنشأ المدارس في مصر وبيروت الشهيرة بمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية . وهو بهذا وذاك أراد أن ييسر الطريق للعمل العقلي في الإسلام ووضع نواة المنهج العلمي لتربية الناشئة وتوجيهها . وهكذا الشأن في كل ما سار فيه كان يرمي إلى توضيح مبدأين أساسيين :

١ - مناوأة التقليد ودفع الباحثين إلى الاستقلال في البحث والفهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . سواء أكانت تلك الاستطاعة عن طريق إعدادهم العلمي أم استعدادهم العقلي . ويذهب في مضار التقليد ومناوأته إلى أن الإسلام نفسه بصفته ديناً لم يقم على التقليد ، وهنا يصرح بأن الاجتهاد «ضرورة عقلية ودينية» .

٢ - تأكيد «حرية الفرد واختياره في أفعاله» . إذ إن ربط الإنسان وتصرفاته بغيره على الإطلاق لا يتفق وتكريم الله للإنسان ، كما أن الفرد المختار وهو اللبنة

(١) البهي ، المرجع السابق ، ص٩٤-٩٥ . كذلك انظر حوراني ، المرجع السابق ، ص١٧٨ وما بعدها ، انظر أيضاً مقبل ، المرجع السابق ، ص٥٤-٥٥ . أيضاً قارن *Also cf. Tibi, op. cit., pp. 64-68.*

الإيجابية في بناء المجتمع الإنساني المنتج . والإسلام في نظره لم يهدف إلى خلق مجتمع عاقل مشلول . بل قصد إلى مجتمع تعمره الحياة والحركة ، ويتجه في سيره إلى الخير العام[1] .

مؤلفاته ووفاته :

معظم آثار ابن باديس الباقية تلك التي نشرها في الصحافة ، سواء التي ظهرت في بعض الصحف الوطنية والإصلاحية ، أو بصحافته المستقلة - لسان الحركة الإصلاحية التي قادها - وأبرزها مجلة الشهاب وجريدة البصائر ، في الشهاب خاصة ، وسع ابن باديس دائرة نشاطه التعليمي - لمخاطبة السواد الأعظم من شعب الجزائر - فكرس افتتاحيتها لنشر مختارات من دروسه التفسيرية والحديثية تحت عنوان : «مجالس التذكير» . أما في مجال تأليف الكتب فشواغله الصحفية الجمَّة ، ووقته الموقوف لحركته الدعوية الإصلاحية ، وكفاحه المتواصل المخلص من أجل تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي حال دون نتاج أو مؤلفات علمية متخصصة موسوعية ، .. وإن صدر له بعض الكتيبات باسم .

١ - الدرر الغالية في آداب الدعوة .

٢ - العقائد الإسلامية (على منهج السلف) .

٣ - مبادئ الأصول . وقد قام تلميذاه الوفيان محمد الصالح وتوفيق محمد بجمع تفسيره وشرح الحديث النبوي الشريف، ودروسه في العقيدة وتأريخه للصحابة تحت العنوان نفسه الذي اختاره أستاذهما ابن باديس لافتتاحية الشهاب مجالس التذكير ، ثم طبعا الكتاب ونشراه عام (١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م) .

٤ - هذا فضلاً عن تحقيق وتقديم ابن باديس نفسه لكتاب الإمام أبي بكر محمد

---

(١) البهي ، المرجع السابق ، ص٩٥-٩٦ . وانظر وقارن المرجع نفسه ، ص٩٦-٩٩. وقارن أيضاً قلعجي ، المرجع السابق ، ص٢٥١-٢٥٦ .

ابن العربي[1] » . العواصم من القواصم» وطبعه في جزءين على نفقته الخاصة عام (١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م) .

٥ - كما ترجم لرموز منتخبة من أعلام الإسلام من السلف والخلف ، ظهرت في صفحات مجلة الشهاب ، ثم جمعت تحت عنوان «تراجم أعلام» .

٦ - هذا ومن الجدير بالذكر ، أن عمار الطالبي ، جمع معظم أعمال وآثار ابن باديس ، في أربعة أجزاء ، وقد صدرت في أكثر من طبعة ، أهمها الطبعة الأولى ، عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره ، الناشر دار ومكتبة الشركة الجزائرية ١٩٦٨م . ثم ظهرت الثانية في دمشق متزامنة مع الطبعة الأولى تقريباً . ثم ظهرت الطبعة الثالثة ولعلها الأخيرة ، للمؤلف نفسه ، ابن باديس حياته وآثاره ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٣م[2].

توفي ابن باديس (يرحمه الله) مساء يوم الثلاثاء (٨ ربيع الأول ١٣٥٩هـ / ١٦ نيسان (أبريل) ١٩٤٠م) إثر تعرضه لمرض مفاجئ قصير ، لم يمهله ، فنعته الجزائر كلها ، وحزن على فقده محبوه وعارفو فضله ومكانته في العالمين العربي والإسلامي، ودفن في مسقط رأسه مدينة قسنطينة ، لتخرج جماهيرها عن بكرة أبيها في وداعه ، وفية لرائد ومصلح عظيم ومعلم ومربٍ وداعٍ حكيم ، ستبقى ذكراه معاني تُستلهم لحاضر ومستقبل أجيالنا وشباب أمتنا الناهضِ ورصيد قوة غدها العالمية .

---

(١) أبو بكر محمد بن عبدالله ابن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) عالم مشارك في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن والنحو والتاريخ ، ولد في (إشبيلية) الأندلس ومات في المغرب بالقرب من فاس ، رحل في طلب العلم والتعرف إلى العلماء في رحلة طويلة استمرت أكثر من ثماني سنوات ، طوف فيها بالجزائر ومصر وفلسطين (القدس) ودمشق وبغداد . له مؤلفات عدة إلى جانب كتابه «العواصم من القواصم» في جزءين - توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية - منها «شرح الجامع الصحيح للترمذي» . انظر عثمان ، المرجع السابق ، ص٤٦٧ - ٤٦٩ . أيضاً انظر المنجد ، المرجع السابق ، ص١٢ .

(٢) انظر حميداتو ، المرجع السابق ، ص٨١-٨٢ . كذلك انظر عويمر ، المرجع السابق ، ص٤٤ ، أيضاً رابح ، المرجع السابق ، ص١٠٦ (الهامش) .

الخاتمة :

تبين لنا من خلال هذه الدراسة ، أن ابن باديس علم من أعلام المجاهدين في المغرب العربي الكبير ، ويصنف عند الكثيرين من العلماء والمفكرين البارزين في الشرق والغرب ، رائداً من رواد النهضة العربية الإسلامية الحديثة ، وداعية مجتهداً ومصلحاً إسلامياً كبيراً، سار على خطى السلف وكبار المصلحين المجددين النهضويين، سواءً ممن عاصرهم ، أو ممن عاصر آثارهم التي كانت ما زالت صداها حاضرة كأصحابها في أرجاء العالمين العربي والإسلامي . كان (يرحمه الله) منفتحاً على العصر ، ومناوئاً للتقليد ، لكنه في الوقت نفسه ، لا يتقدم عليه أحد بتمسكه بالثوابت الإسلامية من عقائدية وخلقية . وحسبه ، أنه كانت لجهوده الإصلاحية التجديدية على الحياة الدينية والاجتماعية والفكرية داخل الجزائر ومحيطها القريب والبعيد آثار باقية لا تمحى ، بالإضافة إلى هذا ، المكانة المرموقة التي حظي بها ابن باديس داخل مجتمعه وخارجه ، كشخصية إسلامية أثيرة ، استطاعت بسلاح الإسلام والعروبة أن تسترد للجزائر هويتها ، عروبتها وإسلامها . ضارباً أروع الأمثال في الشجاعة والتضحية دفاعاً عن قضايا بلاده وأمته العادلة الحقة .

من أجل تهيئة الأجيال لتحرير الجزائر ، وضع ابن باديس خطته للنهضة الشاملة في مجال الإصلاح الديني والاجتماعي والوطني، ورأى في التربية والتعليم والصحافة، الوسيلة الناجعة لتحقيق أهداف النهضة المرجوة لطرد المحتلين .. وهي الخطة نفسها، التي أثمرت وآتت أُكلها - بعد حين - حيث كانت سبباً رئيساً في استنهاض همم الشعب الجزائري وتأجيج مشاعر التمرد والغضب الوطني الديني لدى الشعب الجزائري ضد المحتل الفرنسي ، ثم لتنفجر روح الجهاد والثورة المجيدة في هذا الشعب العربي المسلم الأبي، التي قادت إلى قيام حرب التحرير الجزائرية، لتنتصر في النهاية ، بفضل من الله ثم بفضل التضحيات الهائلة التي بذلها الشعب الجزائري المكافح، بدعم من أمته العربية والإسلامية، وبإخلاص ابن باديس ، الذي يعد بلا مراء الأب الروحي لها .

ثبت بأهم المصادر والمراجع

(أولاً) العربية :

١ - أرسلان ، شكيب . **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم** .- ط٢ .- بيروت : دار مكتبة الحياة ، د . ت.

٢ - البهي ، محمد . «**اتجاهات الفلسفة الإسلامية - وكيفية مجابهة الأفكار الحديثة في المجتمعات الإسلامية**» - في الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة - بحوث ودراسات إسلامية (كتاب) .- ط٢ .- القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ١٩٦٢م .

٣ - تابيرو ، نوربير . **الكواكبي المفكر الثائر** ؛ ترجمة علي سلامة .- ط٢ .- بيروت: دار الآداب ، ١٩٨١م .

٤ - تشرشل، شارل هنري . **حياة الأمير عبدالقادر (الجزائري)** ؛ ترجمة أبو القاسم سعد الله .- ط٢ .- الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م.

٥ - جماعة من العلماء . **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة** .- ط٢ .- الرياض : الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ١٩٨٩م .

٦ - الجندي ، عبدالحليم . **الإمام محمد بن عبدالوهاب - أو انتصار المنهج السلفي** .- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٨م .

٧ - حميداتو، مصطفى محمد. عبدالحميد ابن باديس (رحمه الله) وجهوده التربوية، **كتاب الأمة** ، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الدوحة - دولة قطر ، أيار (مايو) حزيران (يونيو) ١٩٩٧م .

٨ - حوراني ، البرت . **الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨ - ١٩٣٩م)** ؛ ترجمه إلى العربية كريم عزقول .- ط٣ .- بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٧م .

٩ – رابح ، تركي . «عبدالحميد بن باديس ، باعث النهضة الإسلامية في الجزائر الحديثة» ، في **العربي** (مجلة) العدد ١٣٧ ، نيسان (أبريل) ١٩٧٠م .

١٠– الراسي ، جورج . **الإسلام الجزائري – من الأمير عبدالقادر إلى أمراء الجماعات** – ٠– بيروت : دار الجديد ، ١٩٩٧م .

١١– الزركلي ، خير الدين . **الأعلام** – قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين – في ٨ مجلدات ٠– ط٤ ٠– بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م .

١٢– سيد الأهل ، عبدالعزيز . **داعية التوحيد محمد بن عبدالوهاب** ٠– ط٢ ٠– بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٧٨م .

١٣– الشيخ ، رأفت . **في تاريخ العرب الحديث** ٠– ط٣ ٠– القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٢م .

١٤– الطالبي ، عمار . **ابن باديس حياته وآثاره** ، في ٤ أجزاء ، دار ومكتبة الشركة الجزائرية ، ١٩٦٨م .

١٥– عبدالكريم ، أحمد عزت . **دراسات في تاريخ العرب الحديث** ٠– بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٠م .

١٦– عثمان ، عبدالكريم . **معالم الثقافة الإسلامية** ٠– ط١١ ٠– بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٤م .

١٧– العسلي ، بسام . **المجاهدون الجزائرون** ٠– ط٢ ٠– بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٦م .

١٨– العسلي ، بسام . **الله أكبر ... وانطلقت ثورة الجزائر** ٠– ط٢ ٠– بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٦م .

١٩- عويمر ، مولود . «المصلح الثائر الإمام عبدالحميد ابن باديس ١٨٨٩ - ١٩٤٠م»، في **المجتمع** (مجلة) العدد ١٤٥٣ ، ٢ - ٨ حزيران (يونيو) ٢٠٠١م .

٢٠- فَنان ، جمال . **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر** .- الجزائر: منشورات دار المتحف الوطني للمجاهد ، ١٩٩٤م .

٢١- قاسم ، محمود . **الإمام عبدالحميد ابن باديس - الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية** .- ط٢ .- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٩م .

٢٢- قلعجي ، قدري . **ثلاثة من أعلام الحرية - جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده، سعد زغلول** .- بيروت : دار الكاتب العربي ، د . ت .

٢٣- **مجموعة جريدة البصائر** . لسان حال جمعية العلماء الجزائريين ، ج١ ، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٥م - كانون الثاني (يناير) ١٩٣٧م .- الجزائر : أعادت طبعها دار البعث بمدينة قسنطينة ، ١٩٨٤م .

٢٤- مطبقاني ، مازن صلاح . **عبدالحميد ابن باديس - العالم الرباني والزعيم السياسي** .- دمشق ، وبيروت : دار القلم ، ١٩٨٩م .

٢٥- مقبل ، فهمي توفيق . **رواد الإصلاح في العصر الحديث - الأفغاني ، عبده ، الكواكبي** ، رضا - ببليوغرافيا ودراسة .- بيروت : الدار الأكاديمية ، ١٩٧٥م .

٢٦- الميلي ، محمد . **ابن باديس وعروبة الجزائر** .- ط٢ .- الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٠م .

٢٧- الندوة العالمية للشباب الإسلامي . **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة** .- ط٢ .- الرياض : من إصدارات الندوة العالمية نفسها ، ١٩٨٩م .

٢٨- هيئة التحرير . «الجزائر : وصمة العار الخالدة .. في جبين فرنسا !» ، في **العربي** (مجلة) العدد ٢٣ ، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠م .

٢٩- ياغي ، إسماعيل . **العالم العربي في التاريخ الحديث** ٠- الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٩٩٧م .

٣٠- ياغي ، إسماعيل ومحمود شاكر . **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (قارة إفريقيا)** ج٢ ٠- الرياض : دار المريخ ، ١٩٨٣م .

(ثانياً) الأجنبية :

1 . *Cach, W. Wilson, The Expansion of Islam-An Arab Religion in the Non- Arab World, Edinburgh House Press, London, 1928.*

2. *Tibawi, A. L., Islamic Education, Its Traditions and Modernization into the Arab National Systems, Luzac and Company ltd., London, 1979.*

3. *Tibi, Bassam, Arab Nationalism- A Critical Enquiry - Ed. And Trans. by Marion Farouk- Sluglett and Peter Sluglett, The Macmillan Press, London, 1981.*

4. *World Book (The) Encyclopedia, 22d. vol., World Book International, A. Scott Fetzer Co., London, Chicago, 1994.*